الفصل الثاني

إنجازات وإخفاقات خروشوف

لنشتبك أولا، ثم يكون لكل حادث حديث

نابليون بونابارت

سنريكم كيف يكون عقابنا لأمثالكم

نيكيتا خروشوف

في مارس 1953م، سيطر ورثة ستالين على مقاليد الحكم في دولة عظمى، واكتسبوا امتيازات إضافية في الفضاء الاشتراكي الواسع. وكان عليهم التعامل مع عدد من الأولويات السياسية. كان أولها الصراع على السلطة. هذا الصراع الذي أظهر فيه نيكيتا خروشوف مهارة نادرة، وحقق عددًا من الانتصارات الهامة خلال فترة حكمه، تبعها سقوط مدو. وتمثلت الأولوية الثانية في معالجة الموقف الداخلي. أما الثالثة، فتمثلت في الوضع في المعسكر الاشتراكي، وأما الرابعة فكانت تتعلق بالعلاقات المتبادلة مع أمريكا، والغرب عمومًا، في ظل أجواء الحرب الباردة وسباق التسلح. لم يكن العالم الثالث ضمن أولويات السياسة السوفيتية حينها.

كان القادة السوفيت جميعهم واقعين تحت ضغط الإرث السياسي والفكري لحقبة ستالين، مع اختلاف الكثيرين منهم مع رؤاه الأصيلة بدرجة أو بأخرى. غير أن أفق نيكيتا خروشوف، الشخص العصامي محدود الثقافة، والذي أصبح رجل دولة من طراز رفيع، وصاحب خبرة كبيرة في العمل الميداني خارج حدود الكرملين، كان أكثر اتساعًا من المحيطين به. كانت غريزته السياسية توحي إليه بضرورة التخلي عن شكل الحكم الذي انتهجه سابقه، ستالين، حيث اتخذ قرارات بإغلاق معسكرات الاعتقال، وبحث عن أشكال جديدة للتعايش مع الغرب، والنضال ضده في الوقت نفسه. ومع الوقت أخذ اهتمامه يتزايد تدريجيًا ببلدان العالم الثالث.

وقد اســتبدل نيكيتا خروشوف شعار البلاشفة: من ليس معنا فهو ضدنا، بشعار جديد وهــو: من ليس ضدنا فهو معنا. كما دشــن لعلاقات صداقة مــع رئيس وزراء الهند، نهرو، والرئيس الأندونيســي، ســوكارنو. وقــد زار هذين البلدين في عــام 1955م، ثم توجه إلى أفغانســتان بصحبة رئيس الوزراء الســوفيتي حينها، نيقولاي بولجانين، حيث اقتنع أن الوضع هناك يختلف تمامًا عن رؤية ستالين، ولا يتوافق معها. كما فهم أن سياسة دول آسيا وأفريقيا لا تتعارض ومصالح الاتحاد الســوفيتي، بل تضاعف الهــوة بين تلك البلدان والغرب. وكانت هذه الــدول قد عقدت مؤتمرها الدولي في باندونج، في إبريــل عام 1955م، ووافقت على خمس مبادئ للتعايش السلمي.

أصبح خروشــوف والمحيطون به يولــون اهتمامًا أكبر بتعظيم قــدرات التحالف المعادي للغــرب، أو المعادي للإمبريالية، وقواه المنتشــرة في البلدان العربية، كما لاحظوا، بســهولة، استعداد هذه القوى للتحالف والتعاون مع الاتحاد السوفيتي.

وفي التقرير الختامي للجنة المركزية للحزب الشــيوعي الســوفيتي، في مؤتمره العشرين (فبراير 1956م)، تحدث خروشــوف وفضح عبادة الفرد التي ســادت في عصر ستالين، ولم يكتف بذلك، بل تناول، للمرة الأولى في حديثه، الوضع في العالم الثالث. أشــار خروشوف إلى أنه قد بدأت حقبة جديدة دعا إليها لينين؛ وهي الحقبة التي ستشارك فيها شعوب الشرق بفاعلية في تقريــر مصير العالم. ولفت الانتباه إلى أنه وخلافًــا لفترة ما قبل الحرب أصبحت الأغلبية العظمى من دول آســيا بلدانا مستقلة، تدافع عن سياساتها الخارجية المستقلة. وأشار التقرير إلى أن العلاقــات الدوليــة خرجت عن إطار العلاقة بين الدول الــتي تقطنها أغلبية بيضاء، وأخــذت تصطبغ بطابع جامع بين بلدان العالم كافــة. كما جئ على ذكر ذلك في قرارات المؤتمر،، حيث تمت الإشارة، للمرة الأولى، إلى تضاعف عدد قوى السلام بعد ظهور مجموعة من الدول المحبة للســلام على الساحة العالمية، ســواء في قارة أوروبا أو آسيا، التي تدعو إلى إرســاء مبدأ عدم الانضمام إلى الأحلاف العسكرية. وكان من نتيجة ذلك أن تشكل فضاء ســلام واســع، يضم بلدانا اشتراكية وغير اشتراكية، محبة للســلام، في كل من أوروبا وآسيا، وتغطي أكثر من نصف مساحة المعمورة.

وشهد المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي، (يناير- فبراير 1959م)، اتخاذ خطوة جديــدة على طريق تقييم واقع العــالم الثالث، حيث امتنعت معظم البلدان التي كانت واقعة تحــت الاحتلال، والتي كانت تمثل مخزنًا واحتياطيًا اســتراتيجيًا للدول الإمبريالية، عن لعبهذا

الدور. أصبحت هذه البلدان تناضل ضد الإمبريالية والاستعمار، ومن أجل الحرية والاستقلال الوطني. وقد تحققت انجازات أخرى خلال المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، (أكتوبر 1961م)، حيث خرجت بلدان آسيا وأفريقيا الوليدة إلى الساحة العالمية، وأصبحت تلعب دورًا نشطًا في حل قضايا الحرب والسلم، وغيرت بشكل قوي، من موازين القوى لصالح التيار المحب السلام، أي الاتحاد السوفيتي وحلفائه، وهو ما أدى بدوره إلى حدوث تغيرات جوهرية في منظومة العلاقات الدولية. كما لوحظ أثناء المؤتمرين الحادي والعشرين والثاني والعشرين للحزب الشيوعي أن البورجوازية الوطنية، والتي أصبحت على رأس السلطة في عدد من الدول المتحررة، لم تستنفذ بعد دورها التقدمي وما زال لديها القدرة على حل العديد من القضايا الوطنية الملحة. لكن المشكلة في انعدام الثقة فيها، وذلك نظرا لاحتدام الصراع الطبقي داخل الدولة، ما يدفعها للميل أكثر إلى موافقة الإمبريالية وقوى الرجعية في الداخل.

وقد تطلبت السياسة السوفيتية الجديدة، الأكثر مرونة ونجاحًا، تغييراً في الشعارات المستهدفة، والتي لم تكن في وضع يسمح لها بالتخلي عنها بعد. ونجحت قيادة خروشوف في العثور على أكليشيهات جديدة بسرعة لصياغة نظرية دعائية لسياساتها في العالم الثالث، نذكر منها الطريق غير الرأسمالي للتنمية والديمقراطية الثورية، والديمقراطية الوطنية.

وهكذا لم يعد العالم منقسمًا إلى أبيض وأسود مثلما كان عليه الحال سابقا، ولم يكن منقسمًا إلى هم ونحن. اقترب العالم من المستقبل المشرق، لكن هذا الطريق لم يكن يسير بالضرورة عبر حروب دموية. تغيرت موازين القوى لصالح الاشتراكيين، وكانت الفرصة متاحة لتجنب التصرفات العدائية من جانب الإمبريالية. كما اختلفت أشكال الانتقال إلى الاشتراكية، بما في ذلك التطور السلمي للثورة.

ومن الصعب القول بأن خروشوف قد طرح فكرة لينين وستالين حول أزمة الرأسمالية والانتقال المؤسس والعلمي إلى النهج الشيوعي. كان الزعيم السوفيتي الجديد يرفض فكرة وجوب التضحية بالدماء في سبيل الانتقال من معسكر إلى آخر. وكان ذلك من انجازاته بحق. يتذكر الجميع ما قاله للأمريكيين: سوف ندفنكم. كان يقصد الجانب السياسي والاجتماعي فحسب وليس العسكري أو البشري. رفض خروشوف الحرب، وخاصة في عصر السلاح النووي (على الرغم أنه أحيانا كان يسمح لنفسه باجتذاب اهتمام العالم كله بتصريحاته وتهديداته القوية). كان بالفعل مؤيدًا للتعايش السلمي، ولكن على أساس التنافس، بما في ذلك في المجال العسكري والسياسي (وبدون إشعال حرب نووية صاروخية) حيث كان على يقين من انتصار الاشتراكية والاتحاد السوفيتي.

وعندما سأل كاتب هذه السطور أناتولي جروميكو، إبن وزير الخارجية السوفيتي الشهير والذي ظل في منصبه لربع قرن، عن الأحداث التي أثرت بشكل أساسي على طريقة تفكير والده وغيره من الزعماء السوفيت، سمع الرد التالي: "ما حدث يوم 22 يونيو 1941م" وقد أجمع كثيرون على هذه الحقيقة وخاصة الجيل القديم الذي كان يقوم بوضع أو بتنفيذ السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي حينها. وبدون استيعاب هذه الحقيقة لا يمكن أن نقيم رؤية القيادة السوفيتية للعالم في تلك الفترة ولاحقًا حتى حكم الرئيس ميخائيل جورباتشوف بشكل سليم، بما في ذلك تقييم الوضع في الشرق الأوسط والأدنى.

ففي الثاني والعشرين من يونيو 1941م، اندلعت أكثر الحروب قسوة ودمارًا وضحايا في تاريخ دولتنا. وقد حددت النتائج الدامية والمؤلمة التي تركتها هذه الحرب طبيعة النهج السياسي لاحقًا، سواء داخل البلاد أو على الساحة الدولية، واستمر هذا التأثير لجيلين كاملين. كان مطلع الأغنية الروسية الشهيرة "أيا عزيزي، ليت الحرب لم تكن" يعني أن المواطنين السوفيت كانوا على استعداد للقيام بأي شيء في سبيل تجنب حدوثها. ولذا فقد كانوا على استعداد للحرمان والتقشف، كي لا تتكرر المأساة. كان يجب امتلاك القوة حتى لا يتجرأ أحد مرة أخرى على الاتحاد السوفيتي.

وقد رأى الأمريكيون أن تفوقهم النووي عامل ردع للاتحاد السوفيتي، فيما اعتبر السوفيت تفوقهم البري ونشر فرق الدبابات السوفيتية في أوروبا عامل ردع لأمريكا. ولم يكن الطرفان المتنافسان على استعداد للتفاهم.

وربما أصاب علماء السياسة الغربيون عندما اعتقدوا أن الزعماء السوفيت كانوا مشغولين ومهمومين طول الوقت بقضية الأمن. ولم يستطع الأمريكان أن يتفهموا هذه المخاوف، نظرا لأن المجتمع الأمريكي لم يعان مثلما عانى الروس أثناء الحرب، ولم تسقط قنبلة واحدة على القارة الأمريكية. في حين كان على القادة السوفيت العيش لعقود في ظل وجود قواعد عسكرية أمريكية وإنجليزية بالقرب من حدودهم، يمكنها أن توجه الضربة الأولى في أي وقت. كان يكفى أن تنظر إلى الخريطة لكي تلحظ انتشار هذه القواعد لتحيط بحدود الاتحاد السوفيتي، ولم يكن القادة الأمريكان ليقبلوا بوضع كهذا. وقد هدد الرئيس الأمريكي الذكي والصارم جون كينيدي بحرب نووية عندما غامر نيكيتا خروشوف وحاول في عام 1962م نشر صواريخ سوفيتية متوسطة المدى في كوبا. كان يرى أن هذا بمثابة تهديد للأمريكيين يضعهم في وضع مشابه لما عليه السوفيت. وخسر خروشوف الرهان وخلال أقل من عشر سنوات ضاعف الطرفان من

قدراتهمـــا الصاروخية، وخاصة في مجال إنتـــاج الصواريخ العابرة للقارات، حتى أصبحا في وضع متســـاو في القوة، وأصبـــح لديهما إمكانية التدمير المتبادل لأكثر من مـــرة، ولذا فقد بدءا في التفاوض فيما بينهما، والاتفاق حول تقليص عدد الأسلحة النووية الاستراتيجية.

(من الملاحظ أن الأمريكيين لم يســـتطيعوا فهم ما يفكر فيه الزعماء السوفيت حينها كما أن القادة الســـوفيت عجزوا عن فهم السياسة الخارجية الأمريكية، وخاصة ما يتعلق بالعوامل المحـــددة لها. ولهذا الســـبب تحديدًا قيمت موســـكو عاليًا التهديد النـــووي لأطراف العدوان الثلاثـــي في عام 1956م. ســـنقف تفصيلًا عند ذلك لاحقًا. وبعـــد انتهاء الأزمة الكوبية، وتولى نيكســـون رئاســـة الولايات المتحدة الأمريكية، والبدء في مفاوضات الحد من الأسلحة الاســـتراتيجية في عام 1969م، حدث نوع من التفاهم المتبادل بين العاصمتين. غير أن من يعرفون بالصقور في البلدين كانوا يضغطون دائمًا في سبيل تأزيم الموقف).

وما يعنينا هنا أمر آخر. هل تأثر تشـــكل السياســـة الخارجية السوفيتية في الشرق الأوسط والأدنى بنفســـية القيادات السوفيتية وهاجس الأمن المسيطر عليها وآثار الحرب العالمية الثانية؟ الإجابة قاطعة بلا شـــك. فقد كان هناك، في منطقتي الشـــرق الأوسط والأدنى، انتشار واسع للقواعـــد عســـكرية (كما تم بناء قواعد في تركيا نتيجة لسياســـة ســـتالين الخاطئة) وكان من الضروري إغلاق هذه القواعد، ما يعني دعم من يؤيد غلقها. ونذكر هنا أن القواعد الأمريكية كانت منتشـــرة في بلدان المغرب وليبيا وتركيا وباكســـتان والسعودية، وكذا في اليونان وإيطاليا وأسبانيا. كما كان لإنجلترا قواعدها في مصر والعراق والسودان وليبيا وفلسطين والأردن والجزيرة العربية وقبرص. وكانت تلك القواعد في نظر القادة السوفيت بمثابة امتدادا للناتو، وقواعد إمداد له أثناء أي عدوان محتمل ضد الاتحاد الســـوفيتي، ولذا كان من الضروري إغلاقها وبســـرعة، وتقديم الدعم الكافي للقوى التي تســـعى إلى تحقيق هذا الهدف، ســـواء كانت قوى دينية أو قومية، أو حتى معادية للشيوعية.

وكان خروشـــوف يرى نفس الرأي الذي تبناه فلاديمير لينين، في كون تقديم الدعم لبلدان الشرق الأوسط والأدنى في الحصول على استقلالها، ومن ثم تدعيم سيادتها على أراضيها من شـــأنه أن يساعد الاتحاد السوفيتي على الإسراع من عملية إجبار الغرب على التهدئة. فبدون مصادر الخام، وأســـواق تســـويق المنتجات، والأيدي العاملة الرخيصة، لا يمكن للغرب البقاء طويـــلًا. وهكذا تمثل الهدف الرئيس في تحويل هذه المنطقـــة بأكملها إلى مجموعة من الدول المستقلة المحايدة الخالية من أي قواعد أو قوات أجنبية على أراضيها، وفي نفس الوقت تربطها

بالاتحاد السوفيتي علاقات صداقة وتعاون اقتصادي وسياسي وغيرها، حتى ولو بالمستوى الذي كانت عليه العلاقات التركية السوفيتية في فترة ما بين الحربين العالميتين.

ومن السهل ملاحظة أن زعماء الاتحاد السوفيتي والقوميين في الداخل قد انطلقوا من فرضيات مختلفة، واهتدوا بدوافع متباينة، كما تطابقت أهدافهم السياسية مؤقتًا، أو على الأقل كانت متقاربة.

وفيما يتعلق بتحول هذه البلدان نحو الاشتراكية فقد كان الهدف الأمثل الذي يمكن ان ينتظر من هذه الجهود، ولكنه لم يكن الهدف الأقرب للتحقق. وفي النهاية فإن الإنسانية كلها قد اتجهت نحو الاشتراكية وكانت دول المنطقة بدورها أيضا في طريقها إلى تحقيق هذا الهدف. نعم. كانت التكلفة التي تدفعها دول المنطقة مرتفعة، وتم إنفاق موارد ضخمة من ميزانية الاتحاد السوفيتي على مساعدة البلدان الاشتراكية الوليدة، والتي كان من المحتمل ظهورها في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى.

ومرة أخرى أسعف الحس السياسي والوعي بطبيعة الصراع العالمي بين القوتين العظميين نيكيتا خروشوف في تحقيق مكاسب استراتيجية في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، وهو ما ساعده في تحقيق نجاحات مؤكدة. فقد كانت هذه المنطقة، وخاصة البلدان العربية، تمثل بالنسبة للاتحاد السوفيتي صفحة ناصعة البياض، استطاع خروشوف أن يكتب فيها بشجاعة ويصيغ سياسته الخاصة. كان قائدًا عاطفيًا. ولكنه في الوقت نفسه كان صاحب إرادة فولاذية وعلى استعداد للمخاطرة.

تطورت الأحداث في الشرق الأوسط والأدنى وفي العالم الثالث بصفة عامة. وقد خضعت تلك التطورات لقوانين تلك البلدان، ومنطقها الخاص في التعامل مع الواقع. كانت هناك رغبة قوية من جانب بريطانيا وفرنسا (مثلما هو الحال مع بلجيكا والبرتغال) في التخلص من عبء الإنسان الأبيض، وفهم أن زمانهم قد ولى، وقد ترك بعده عداءً تاريخيًا من قبل شعوب بلدان العالم الثالث، وأثار الكراهية تجاههم من قبل النخب السياسية. أظهر الواقع العملي أن الدول الاستعمارية الكبرى لم تكن في حال يمكنها من الاستمرار في سياساتها الإمبراطورية القديمة، كما لم تكن لديها الموارد اللازمة لذلك ناهيك عن الإرادة السياسية. وعندما توجهت إلى أمريكا، الزعيم القوي الجديد، طلبا للمساعدة. لم يكن لدى هذه الأخيرة أي ماض استعماري في بلدان الشرق الأوسط والأدنى، ولذا فقد أسر الحلم الأمريكي

العقول والألباب بين ممثلي الطبقات الاجتماعية الجديدة والمثقفين. وأصبحت شعبية الولايات المتحدة في العالم الثالث مرتفعة جدًا.

لم تكن الولايات المتحدة ترحب بسياسات حلفائها، ولكنها في الوقت نفسه لم تعارضهم. كان العدو الأساسي بالنسبة لوزير الخارجية الأمريكي، دالاس، هو الشيوعية. وقد تبنى بالفعل شعار الشيوعيين في العشرينيات والثلاثينيات: "من ليس معنا فهو ضدنا". وتوجب على بلدان الشـرق الأوسط والأدنى الانضمام إلى تحالفات عسكرية تحت قيادة الغرب من أجل مواجهة الشيوعية والتوسع السوفيتي. وقد لقيت هذه الدعوات بإنشاء تحالفات عسكرية ترحيبًا من قادة العراق وتركيًا، عكس باقي البلدان العربية. وأثارت الضغوط الأمريكية والإنجليزية والفرنسية على هذه البلدان نتيجة عكسـية. وفي الحقيقة ساعدت سياسات وجهود دالاس القادة السوفيت، وسهلت من مهمتهم في تحقيق أهداف السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط والأدنى. كانت المهمة القومية لكافة التيارات السياسية الجماهيرية هي الحصول على الاستقلال ودعم السيادة الوطنيـة، وهو مـا يعني قطع كافة المعاهدات المجحفة سياسـيًا، والـتي تم توقيعها مع القوى العظمى، والقضاء على أي وجود عسـكري للغرب وخاصة على القواعد العسـكرية، ودعم القوات المسـلحة الوطنية بوصفها أداة الحماية والدفاع عن السـيادة والمكانة الوطنية، وتطوير الاقتصـاد الوطني، والقضـاء على الامتيازات الممنوحة لرأس المال الأجنبي، وخاصة شـركات النفط الأجنبية. وبالطبع فإن القوة الأجنبية التي توافق على مساعدتهم في تحقيق هذه الأهداف والآمال سـتصبح حليفًا وصديقًا لهم. وتحول أي معارض لبريطانيا وفرنسا ومصالحها في هذه المنطقة إلى صديق للعرب وغيرهم من الشعوب.

وهكـذا تم إعداد المائدة، وكان الجميع في انتظار الضيف. ولم يكن هذا الضيف سـوى الاتحاد السوفيتي، الذي توافقت سياساته المعلنة بشكل موضوعي مع توجه التحولات التاريخية في المنطقة. غير أن توجيه الدعوة للاتحاد السـوفيتي ليحل ضيفا على المنطقة كان يسـتوجب أن يتغلب كل طرف على العراقيل الخاصة به. فبالنسـبة لبلدان المنطقة، تمثل ذلك في الخوف من انتشار الشـيوعية، وتجذر الدعاية الغربية في هذه البلدان، والخوف من الإلحاد السوفيتي. إلا أن ضعف تأثير الأحزاب الشيوعية المحلية وعدم قبول الجماهير للإيديولوجية الشيوعية قد قلل من حجم هذه المخاوف. حيث تفهم الجميع أن الشيوعية هي خيار الشعب السوفيتي، وأن المكانة التي صنعتها البروباجاندا السوفيتية، والنموذج السياسي الاجتماعي، والنجاحات العسـكرية والصناعية والتي تجلت في عروض ضخمة للدبابات في احتفالات النصر السنوية،

قد ترك انطباعًا قويًا على النخب السياسية المحلية. وعلى كل حال فإن لفظة الاشتراكية (على الرغم من أنها تختلف عن الشيوعية) أصبحت لفظة جاذبة، أما الرأسمالية فإنها تجسد السيادة السياسية والاقتصادية والعسكرية للغرب، وأصبح ينظر إليها كونها نوع من السباب.

أما الطرف الآخر، الاتحاد السوفيتي، فقد كان عليه أن يبذل جهودًا أقل. كان يتوجب عليه أن يرفض التعامل مع الخدم والتابعين، وأن يتفهم حقيقة أن تطور الأحداث في المنطقة يفتح الطريق نحو تحقيق فرص جديدة، وهو ما يتسق مع مفهوم الرسالة السامية التي يقوم بها تجاه بلدان العالم، ومع تحقيق الهدف الأسمى بتحقيق ودعم أمن الاتحاد السوفيتي بدرجة أفضل من الحقبة الستالينية.

وفي 24 فبراير 1955م، تم تشكيل أول تحالف عسكري يضم كلا من تركيا والعراق وبريطانيا وباكستان وإيران وأطلق عليه حلف بغداد. وتعرضت كل من مصر وسوريا ولبنان وغيرها من البلدان العربية لضغط بهدف إرغامها على الانضمام للحلف. وقد عارضت الخارجية السوفيتية قيام الحلف وأرسلت مذكرة بعنوان الأمن في الشرق الأوسط والأدنى، بتاريخ 16 إبريل 1955م. وقد تحدثت هذه الوثيقة عن جوهر تأسيس الأحلاف العسكرية في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، وأن ذلك يعكس مساعي الدول الغربية الكبرى للهيمنة الاستعمارية على هذه البلدان، والتي لم تستطع الحفاظ على سيادتها على المنطقة بالأساليب القديمة. ولذا فإنها تحاول توريط الشرق الأوسط والأدنى بالانضمام إلى أحلاف عدوانية، تحت شعارات مزيفة، مدعية أن ذلك من ضرورات الدفاع عن بلدان المنطقة. كما ذكرت الوثيقة أيضا أن الاتحاد السوفيتي سيحمي حرية واستقلال بلدان الشرق الأوسط والأدنى، ولن يسمح بالتدخل في شؤونها الداخلية.

وكان من الطبيعي للدولة السوفيتية الجديدة، في الفترة بين عامي 1954 و1955م أن تعمل على التعاون مع مجموعة بلدان الشرق الأوسط، ومد يد العون للأنظمة العربية التي، ولاعتبارات خاصة، رفضت المشاركة في التحالفات العسكرية التي أسسها الغرب. وكانت مصر هي الدولة الأكثر نفوذًا والأضخم في عدد السكان، وبوابة العبور إلى العالم العربي. وقد أتاحت مصر أفاقا أكبر للاتحاد السوفيتي في التعامل مع المنطقة، وذلك رغم أنه وقبل عامين فقط 1952 – 1953 كانت موسكو تنظر إلى القادة في مصر بوصفهم برجوازيين قوميين وعملاء للإمبريالية الغربية. لكن من يعبأ بمثل هذه المسميات، عندما تكون هناك مصالح سياسية مشتركة؟

ولم يكن المصريون يعتبرون الاتحاد السوفيتي عدوًا. كان العدو بالنسبة لهم هو إنجلترا. وكان المنافس العربي لمصر هو العراق، والتي حكمها نظام ملكي ارتبط بعلاقات وثيقة مع بريطانيا.

وقد سـعى جمال عبد الناصر إلى بناء دولة قوية وتسليح الجيش المصري. ويعود حلم بناء قوات مسلحة فعالة في مصر إلى عصر محمد علي، وخاصة بعد الهزيمة التي مني بها في منتصف القرن التاسع عشر، ثم إرغام إنجلترا لمصر على تقليص عدد أفراد الجيش المصري وتسليحه إلى الحد الأدنى. والتزمت الدول العظمى بالحد من إمداد بلدان الشرق الأوسط والأدنى بالسلاح، سعيًا منها إلى عدم دعم أي دول معادية لإسرائيل في المنطقة، وحتى لا يمنح السلاح لأنظمة يصعب توقع نهجها السياسـي مستقبلاً. رفضت هذه الدول إرضاء طموحات عبد الناصر، ووضعوا شـرطا للموافقة على إمداد مصر بالسـلاح بانضمامها إلى التحالفات العسـكرية، وقبولها اسـتقبال بعثة عسكرية أمريكية. وأخذ عبد الناصر يفكر ولو بشيء من التخوف في البحث عن مصدر آخر للسـلاح. وهناك لغـز حائر حتى الآن حول من الذي بادر بعرض الصفقة على الآخر: هل هي مصر التي طلبت من الاتحاد السوفيتي، أم طلب الاتحاد السوفيتي من مصر؟ كان كل طرف يسعى إلى التقارب مع الطرف الآخر.

وقد شـارك جمال عبد الناصر في صياغة نظرية وسياسـة الحياد الايجابي، ثم مفهوم عدم الانحياز، وكان أحد مؤسسـي حركة عدم الانحياز. أرسـى العقيد الشاب علاقات ودية مع رئيس وزراء الهند، نهرو، والرئيس الأندونيسـي، سـوكارنو، ورئيس يوغوسـلافيا، تيتو. وفي منتصـف فبراير 1955 زار نهرو وتيتو القاهرة، وأعلنـا، صراحة، معارضتهما لحلف بغداد. كان العـراق هو المنافس الإقليمي لمصر، فيما كنت باكسـتان العـدو الأول للهند، وكانت يوغوسلافيا تتشكك في نوايا تركيا. كان عبد الناصر يكن احتراما كبيرا إلى نهرو، واعتبره أخًا ناصحًا، وزعيمًا سياسيًا بارزًا. وربما أشار نهرو وتيتو على عبد الناصر كيف يستفيد بالمواجهة بين الغرب والشـرق. وشـهد المؤتمر الذي عقد في باندونج في إبريل -1955 عقد لقاء بين عبد الناصر و رئيس الوزراء الكوري الشـمالي إنلايم جوي. ومن الواضح أنه كان قد توصل إلى نتيجة مفادها أن التقارب مع التحالف الشـيوعي يدعم من الموقف المصري في مساومته للغرب. وقد أخطأ عبد الناصر في حسـاباته، ولم يقدر حجم مخاطر هذه اللعبة، حيث كان الغرب أسيرا لدوجماته وقوالبه النمطية الخاصة، واعتبر عبد الناصر عميلاً شيوعيًا وعدوًا لهم.

وتم الإسراع بإصدار قرار بطلب الدعم العسكري من الاتحاد السوفيتي، وساعد على ذلك ضم إسـرائيل لقطاع غزة، في 28 فبراير 1955م. كان الضعف العسـكري المصري عاملاً

أرغم عبد الناصر على التصرف بســرعة. وفي 27 ســبتمبر 1955 أعلن عن توقيع اتفاقية تعاون فني وعسكري بين مصر وتشيكوسلوفاكيا.

وبــدا قادة الغرب، وخاصة الولايــات المتحدة الأمريكية وبريطانيــا، في حالة من الهياج والغضب. وكان رد الفعل الغربي تجاه هذه الخطوة سلبيًا. ولكن كلما زادت حدة الانتقادات الغربية لعبد الناصر كلما اكتسب مكانة وشعبية بين المصريين والعرب جميعًا.

وربما كان خروشــوف يحاول تجاوز تعهداته بنزع الســلاح، ولذا فقــد تمت الصفقة عبر تشيكوسلوفاكيا، وبدا هذا مقبولا. وفي 26 يوليو 1956م، اعترف عبد الناصر بأن الاتفاقية وقعــت في الحقيقــة بين مصر والاتحاد الســوفيتي. وطبقا لبنود الاتفاقيــة كان لمصر الحق في الحصول على معدات ثقيلة بقيمة 225 – 250 مليون دولار، مقابل شــحنات من القطن المصــري. وتعهد الاتحاد الســوفيتي بتوريد مقاتــلات ميج 15، وميــج 17، والقاذفات الـ 28، ودبابات خفيفة وثقيلة، ومدرعات، وغواصات وطوربيدات، وفرقاطتين، وشحنات من الذخيرة والمعدات. وقضى الضباط المصريون فترات إعداد وتدريب على هذه الأسلحة في كل من تشيكوســلوفاكيا وبولندا، ثم في الاتحاد السوفيتي. وبدأ توافد الخبراء العسكريين السوفيت ومن دول أوروبا الشرقية على مصر.

وخلال السنوات 1953 – 1956م وقع عبد الناصر عددا من اتفاقيات التعاون الفني والاقتصادي والثقافي مع الصين وبلدان أوروبا الشــرقية. وبهدف تأمين مصر قام عبد الناصر أيضا في أكتوبر 1955 بتوقيع اتفاقيات دفاع مع سوريا، ثم وعلى غير المتوقع مع السعودية. وفي إبريل 1956م انضمت اليمن إلى التحالف العربي الثلاثي.

وبدأ القادة الغربيون يفكرون في كيفية معاقبة عبد الناصر حتى يكون درسًــا قاسيًا لزعماء العالم الثالث. كان ذلك قبل إقدام عبد الناصر على تأميم قناة السويس، والذي أعلن عنه في الأسكندرية، في 26 يوليو 1956م، أثناء لقاء جماهيري. اجتمع الفرنسيون والإنجليز وقرروا احتلال منطقة القناة، ومن ثم تصفية حساباتهم مع هذا الرئيس غير المناسب لسياساتهم.

وبينمــا دارت المباحثات وعقــدت المؤتمرات كان الإعداد جاريا للقيام بعملية عســكرية وانضمت إسرائيل إليها.

ومنذ بداية الأزمة أعلنت الحكومة المصرية أنها ستدفع تعويضات إلى ملاك الأسهم في شركة قناة السويس، وستحترم حرية الملاحة في القناة، وفقا لبنود اتفاقية القسطنطينية لعام 1888م. وفي المؤتمر الذي عقد في لندن في أغسطس 1956 حاولت الدول الغربية إرغام مصر على إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وتسليم القناة مرة أخرى إلى فرنسا وبريطانيا. وشارك في المؤتمر وفد سوفيتي برئاسة وزير الخارجية دميتري شيبيلوف. وأدت الخلافات بين المشاركين إلى انتهاء المؤتمر دون التوصل إلى نتيجة. ورفض الوفد السوفيتي ووفود دول عدم الانحياز أي خطط عدوانية ضد مصر. غير أن كلا من فرنسا وإنجلترا كانتا تواصلان التحضيرات للعملية العسكرية، ولم تبديا أي اهتمام بالتوصل إلى حل سلمي للأزمة.

وفي ليلة الثلاثين من أكتوبر اقتحمت القوات الإسرائيلية الحدود المصرية عبر سيناء. وتمت مناقشة الاعتداء الإسرائيلي في مجلس الأمن، في يوم 30 أكتوبر، ولكن، ووفقا للسيناريو المعد سلفا، أرسلت كل إنجلترا وفرنسا إنذارا إلى مصر وإسرائيل بإبعاد قواتهما عن القناة. وفي يوم 31 أكتوبر قام الطيران الإنجليزي والفرنسي بقصف منطقة القناة ومدن القاهرة والإسكندرية. وقدم الاتحاد السوفيتي احتجاجًا شديد اللهجة. ثم جرت اتصالات دبلوماسية مكثفة في الأمم المتحدة بهدف دعم مصر.

ولم تحقق الحملة النجاح المتوقع. انهزم الجيش المصري لكنه ظل قادرًا على إبداء مقاومة شديدة، وتماسك نظام عبد الناصر على الرغم من الإخفاقات العسكرية. وقبل ذلك اشتدت الحملات في العالم العربي وبلدان العالم تهاجم الغرب، حتى اضطرت الولايات المتحدة إلى التخلي عن حلفائها، وحتى انتقادهم في الأمم المتحدة. (ولذا فإن تأكيد الأدبيات السوفيتية حول الشرق الأوسط والأدنى أن أمريكا كانت متآمرة مع المعتدين ما هي إلا محض افتراءات أشاعها المعارضون للسياسة الأمريكية)

ولاحت أمام الاتحاد السوفيتي فرصة ذهبية وبالفعل لم يتم التفريط بها. استخدمت الدولة كل طاقاتها الدعائية ووزارة الخارجية للهجوم على الدول الغربية العظمى، واستقطبت بذلك المزيد من المؤيدين لها في العالم. وتزامنت الأحداث العسكرية في مصر مع اندلاع انقلاب في المجر ضد النظام الذي فرضه ستالين وهو ما سمح لخروشوف بقمع هذا الانقلاب بأقل الخسائر. لكن لم يكن هذا هو كل شئ. ففي ذروة العمليات العسكرية في منطقة القناة، ولعلمه بكراهية الأمريكيين له، قرر خروشوف التهديد باستخدام القوة، وحتى التلويح باستخدام السلاح النووي.

وفي الخامس من نوفمبر 1956م أرسل وزير الخارجية السوفيتي، شبيلوف، برقية إلى رئيس مجلس الأمن، طالب فيها بالدعوة إلى اجتماع عاجل لمناقشة عدم التزام كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل بقرار الدورة الاستثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة، بالوقف العاجل للاعتداء على مصر. وقد تضمنت البرقية أيضا مشروع قرار يهدد في حالة عدم تنفيذ وقف الاعتداء بتقديم كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة دعمها العسكري لمصر. وقد أعلنت الحكومة السوفيتية عن استعدادها للإسهام في وقف المعتدين وحماية ضحايا العدوان وإعادة السلام إلى المنطقة، عن طريق إرسال القوات البحرية والجوية والبرية اللازمة إلى مصر. ونشير هنا إلى أنه لم يكن لدى الاتحاد السوفيتي أيه قوات جوية أو بحرية مستعدة للقتال في الشرق الأوسط في تلك الفترة.

و في ليلة السادس من نوفمبر بعث الرئيس السوفيتي برسالة إلى رؤساء حكومات إنجلترا (أنطوني إيدن) وفرنسا (جي مولي) وإسرائيل (بن جوريون) أعلن فيها عن عزمه الأكيد على استخدام القوة لصد المعتدين وإعادة السلام إلى الشرق. "

كان هذا الإنذار النووي الأول والوحيد من نوعه، في عصر ما بعد القنبلة الذرية. ورغم ذلك يتم تجاهله في الأدبيات الغربية. والمثير للفضول أنه تم إخفاء الوثائق التي ترصد رد فعل هذه البلدان على الإنذار السوفيتي، وتقديرها لفرصة إقدام الاتحاد السوفيتي على فعل كهذا.

وقد كان مؤلف الكتاب محظوظًا أن عثر بنفسه في الأرشيفات الإنجليزية على وثيقة تلقي الضوء على رد الفعل البريطاني، وربما الفرنسي أيضا، على الإنذار. وأقصد هنا المذكرة التي أعدها المجلس البريطاني لقادة الأركان إلى حكومة نيوزيلندا قبيل العدوان على مصر، جاء فيها: إن التحالف الشيوعي لم يتراجع عن هدفه بعيد المدى بفرض الشيوعية العالمية، وإن القادة السوفيت قد توصلوا إلى نتيجة مفادها أن أسلحة الدمار الشامل الحديثة تجعل من أي حرب عالمية قادمة مدمرة للطرفين. ولهذا السبب فإن التحالف السوفيتي لم يكن ليبدأ الحرب ولم يكن ليقدم على مغامرة غير محسوبة كهذه في منطقة تنذر بمخاطر اندلاع حرب عالمية، نتيجة ما يجري بها من أحداث، ولذا يعتقد التحالف السوفيتي أن سياسة التعايش السلمي توفر أفضل الفرص لتوسيع ونشر نفوذه. وبالتالي فإن خطر اندلاع حرب عالمية لن يكون الا نتيجة حسابات خاطئة. ويمكن أن يحدث ذلك في حالتين:

1. أن تخطئ الدول الشيوعية في تقديرها لرد فعل الطرف الآخر، في ظروف معينة.

2. أن يتورط الطرفان في خلاف ليس بينهما بالأساس. أي بسبب تأييد طرف ثالث غير منحاز لأي منهما، أو بإتباع سياسة التعايش التنافسي ،حيث يمكن أن يتورط التكتل السوفيتي في خلافات بين الدول الغربية، ولو خارج الأحلاف، مثلما حدث بين إنجلترا ومصر.

و نخلص من ذلك إلى ما يلي:

1. في ظل غياب تحولات راديكالية في الموقف السياسي أو العسكري، فإن احتمال قيام حرب عالمية بوصفها عملًا سياسيًا متعمدًا يبدو ضعيفًا جدًا في السنوات الخمس، وربما العشر، المقبلة. وعلى الرغم من ذلك يبقى احتمال نشوب الحرب نتيجة للخطأ في ا لتقديرات.

2. الأمر الأكثر احتمالًا وإمكانية للحدوث هو نشوب حروب محدودة، يتورط فيها التحالف السوفيتي الصيني، وستكون أيضا نتيجة لحسابات خاطئة.

لقد كان ستالين رجلًا يصعب توقع ما سيقوم به، في حين كان خروشوف يخطئ كثيرا في تقديراته وحساباته. ووفقا للتقديرات فإن الاتحاد السوفيتي لم يكن مستعدا للمغامرة بحرب نووية. ماذا لو كان هذا الرجل، نيكيتا خروشوف، لا يمزح؟ ماذا لو لم يكن يعي، حقيقة، مخاطر الحرب؟ وماذا لو لم تدعم الولايات المتحدة الأمريكية حلفاءها؟ من الأفضل أن نتراجع.

وقد حكى ليّ البروفوسير والت روستو، المستشار الأسبق في إدارة أيزنهاور، أثناء لقائي به في تكساس في 17 سبتمبر 1990، قائلًا: كان تقييم الإدارة الأمريكية لتصرفات خروشوف المحتملة هو تقريبا نفس التقييم الذي تضمنته الوثيقة التي عثرتم عليها. أبلغني بذلك السيد هنري كيبوت لودج، المقرب من الرئيس أيزنهاور، والذي عمل في تلك الفترة ممثلا دائما للولايات المتحدة الأمريكية في الأمم المتحدة.

بدت أزمة السويس لحظة سعيدة وفارقة بالنسبة للسياسة السوفيتية في الشرق الأوسط والأدنى، ونصرًا شخصيًا لنيكيتا خروشوف. وهنا أنقل حرفيًا تسجيلًا لحوار، تم بين وزير الخارجية السوفيتي حينها، وبين مرشح لرئاسة اللجنة المركزي للحزب الشيوعي السوفيتي، د. شيبيلوف، والذي كان آخر القادة السوفيت الباقين على قيد الحياة في تلك الفترة. وسأسرد

بعضا منها كونها تتحدث عن المشــاركين الســوفيت في هذه الدرامــا التاريخية، وأجواء تلك الأيام.

د. شــيبيلوف: الإنجليــز والفرنســيون يتصرفون بشــكل فاضح. فقد بــدؤوا بالتهديد والإنذارات، الخ. ولكن قناة الســويس في النهاية بنيت بسواعد المصريين وبدمائهم. لقد ترك عبد الناصر انطباعا جيدا لدي من أول مرة التقيته فيها، ورأيت فيه رجلا شــريفا جدا، يحب الأرض العربية والشــعب العربي. كنت في أحد اللقاءات ولن أنســى أبدا كيف تجمع مئات الآلاف مــن المصريين ينصتون إليه وإلى خطابه وهو يقول: إذا اســتدعت الضرورة فأنا على اســتعداد للتضحية بنفســي وبحياتي، وأن تنزف دمائي قطرة قطرة من أجل تحرير الشــعوب العربية. وإذا لم يستطع عبد الناصر تنفيذ ما وعد به فلكم أن تعدموه! ويتصاعد صراخ مئات الآلاف وزئيرهم مدويا، وكان المشــهد يبدو خياليًا. شــعرت وتيقنت من مدى شعبيته. لقد قاد مجموعة من الأشخاص من مختلف الرتب العسكرية الذين وصلوا إلى الحكم وأرادوا تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية. ومن بين الإجراءات المهمة التي تم اتخاذها تأميم قناة الســويس. كان هذا إجراءًا مشــروعًا. وعندما تتالت الإجراءات الغربية الخطيرة والمتســارعة قررنا تجنب الصدام العســكري. وتمثل نهجنا الرئيس في عدم الســماح بصدام عســكري في هذه المنطقة الحساسة من العالم.

وكان الأمــر كله على هوى خروشــوف: فاليوم نتصرف هكــذا، وغدا نتصرف على نحو آخر. ولذا كان من الممكن توقع أي مفاجآت. وسأقفز قليلًا للأمام وأحكي لكم عن مشهد مهــم. عندما انتهــت أعمال مؤتمر لندن حول أزمة القناة، تلقيت فجأة برقية مشــفرة بتوقيع من خروشــوف وبولجانين: هاجِم الإمبرياليين في أي مؤتمر صحفي. وجه لهم ما يســتحقون من الإهانات. وعندما انتهى كل شــيء وأصبح النصر حليفنا، وكنا في صف واحد مع الهند وأندونيســيا وســيلان، ولم تتم الموافقة على مقترحات دالاس. حينها أخذت أفكر: لماذا أوتر الأجواء في المؤتمر الصحفي الختامي؟ ومر المؤتمر هادئا، وعندما عدت إلى موســكو اتصل بي خروشوف وقال لي: احضر حالا.

المؤلف: كان يعاملكم باحترام؟

د. شــيبيلوف: كان يعاملــني باحترام. كانت علاقته بي جيــدة في البداية، وكان يتقبل نصائحي ويعطيني حرية التصرف، ســواء في أمور العلاقات الدولية أو القضايا الأيديولوجية.

كان هــو دائمًا من يبادر بطلب اللقاء معي. كنت أســتمتع بالحــوار معه. كان مبدعًا في حديثه، ذا ذاكرة قوية.

المؤلف: هل كان حظه من التعليم قليلًا؟

د. شــيبيلوف: كان أميًا في حقيقة الأمر. كان يتعلم القراءة ولم يكن يســتطيع الكتابة. ولكن ذاكرته ذهبية. كان على فطرته. كنت تشعر وأنت معه بتطور إنسان امتلك سلطات واسعة، وعرف كيف يصل بأسرع السبل إلى السلطة، ثم ما لبث أن بدأ يثير الجميع بمفاجآته: شــحن الصواريخ إلى أعتاب أمريكا، ثم زراعة الذرة في مســاحات شاسعة من سوخومي إلى ياكوتسك. كان يغار من كل شيء. كانت أقل إشارة أو أهون تصرف يمكن ان يثيره ويدفعه إلى القيــام بإجراءات حادة، تصل إلى حد إقالة المســؤول بلا تــردد. في أثناء اجتماع لقيادة الحزب قال تيفوســيان له: نيكيتا سيرجيفيتش. أنا على دراية بالأمر أكثر منك. فقد عملت عنــد كروب. كانت هذه الجملة كفيلة بأن يعزل تيفوســيان من منصبه، ثم تم إبعاده وتعيينه سفيراً في اليابان، ومرض بعدها.

باختصار كان ديكتاتوراً. ولكنه في الفترة الأولى كان يزورني أســبوعيًا تقريبًا، أيام الآحاد، ويجلس معي بمفردنا نتحدث، أو بحضور نينا بيتروفنا[1]، أو يصطحب عائلته كلها. كنا نتنزه سويًا، ونتحدث في مختلف القضايا. أما الآن فقد تغير الأمر. استدعاني بعد مؤتمر لندن، وقال لي: لماذا لم تنفذ ما أمرتك به أنا ونيقولاي؟ لماذا لم توجه الإهانة إلى الإمبرياليين؟ أجبته قائلًا: نيكيتا سيرجيفيتش. لم تكن هناك ضرورة لذلك. فقد مر المؤتمر بشكل جيد، وخرجنا فائزين، وظلت القناة في حوزة المصريين، وفشــلت خطة دالاس في إنشــاء رابطة لأصحاب الامتياز في القنــاة. فلم علينا أن نوتر الأجواء؟ لا ضرورة أن نفســد علاقتنا مع البلدان الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية. لم تكن هناك ضرورة لذلك. قال: أنت إنسان خطير. أنت خطير. هل تريد أن تقرر سياســتنا الخارجية؟ أجبته قائلًا: لا أريد أن أدير شيئا، وأعلم جيدًا من منا يدير سياستنا الخارجية. لم تكن هناك ضرورة. أرجو أن تفهمني. وفق الظروف المحيطة لم تكن هناك أي ضرورة. أؤكد لكم أنه لم تكن هناك أي ضرورة لافتعال شــجار. قال: لا لا. أنت إنسان خطير. سأشير إلى جهودك الطيبة أثناء المؤتمر. وسأشير أيضا، ولكن بشكل آخر، إلى أنك لم تنفذ تعليماتي. على كل حال لم تترتب على ذلك أية إجراءات.

---

١. زوجة خروشوف. المؤلف.

المؤلف: وهل كنت تعرف، أثناء المؤتمر، أن هناك خلافا حادا بين أمريكا من ناحية وكل من إنجلترا وفرنسا؟

د. شـــيبيلوف: بالطبع كنت أعلم. كنا نعي أهمية هـــذه الخلافات. كان الموقف معقدا خاصة بالنســـبة للإنجليز. وصلت إلى شـــارع داونينج ســـتريت الشـــهير. وخلافا للأعراف البروتوكوليـــة خرج إيدن إلى الشـــارع، وكان يبدو رجلًا ذكيًا جذابًـــا ذا تأثير. ولكنه لم يكن يدري إلى أين تقوده الأحداث. قال: معالي الوزير، افهمني: إن تسليم القناة للعرب وإلى عبد الناصـــر المتحمس هو بمثابة أن تضع الخناق على عنقي وعنـــق كل إنجليزي. ولذا أريدك أن تتفهم رد فعلنا الحاد تجاه هذا الموقف الذي أعلنه عبد الناصر بتأميم القناة. قلت له: إن ذلك غير مقبول، فهذه أراض مصرية والقناة بناها المصريون، ولهم كل الحق في تأميمها. يمكنك أن تتفاوض معهم على بعض الشروط ليس أكثر.

المؤلف: هل كنت تعرف إلى أي مدى كان الاتحاد الســـوفيتي على استعداد لأن يمضي قدما في مجابهة الإنجليز والفرنسيين؟

د. شـــيبيلوف: منذ البداية كنت عازمًا ومقتنعًا أنه لا ضـــرورة للوصول إلى مرحلة الصدام العســـكري مهما كانت الظروف. وفيما يتعلق بخروشـــوف فلديه فـــرص كثيرة قادمة لكي يأتي بأشياء غير طبيعية، ويستعرض تهديداته. كان يفعل ذلك نظرا لشخصيته المتقلبة. ولكن عندما يدور حوار يقظ وهادئ كان يتفهم الموقف.

المؤلف: هل كان الإنذار النووي خدعة تم التخطيط لها؟

د. شيبيلوف: بالطبع. كان هناك قرار مسبق بعدم الوصول بالأمر إلى الصدام العسكري. ولكن كانت هناك في نفس الوقت بعض الإجراءات ذات التأثير النفسي فكرت فيها ونفذتها. فقد قمت باســـتدعاء سفراء كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ليلًا. تخيل بنفسك. أستدعيهم ليلا، وعيونهم حمراء ناعســـة، والوضع غير طبيعـــي، وأحدثهم بلهجة حادة وأحذرهم. وكما تعرف فاللغة الروسية لغة ثرية، فلفظة تحذير لا تعني بالضرورة أننا سنقوم بتصرف ما.

المؤلف: ألم يكونوا على ثقة من ذلك؟

د. شـــيبيلوف: لم يكونوا واثقين. فقد شعرنا بسرعة شـــديدة أنهم بدؤوا في البحث عن ســـبل للخروج من هذا المأزق. وقد لعب حب خروشوف للفت الأنظار دورًا كبيرًا في تحريك

الموضوع لصالح الاتحاد الســوفيتي. بالطبع استفدنا من العامل النفسي حتى آخر لحظة. لكننا كنا في قرارة أنفسنا مصرين على عدم السماح بحدوث حرب.

المؤلف: ألم تثر سياســة "على حافة الصدام" تلك مخاوفكم، وإمكانية حدوث رد فعل غير متوقع من الطرف الآخر؟ ربما قام هذا الطرف بتوجيه ضربة استباقية؟

د. شــيبيلوف: كان ذلك مســتحيلًا حينها. ويرجع ذلك بشــكل أساسي إلى الموقف الأمريكي. لم يكن الإنجليز ليجرؤوا على إشعال الحرب، ولم يكن لدى الأمريكيين أي مبررات لخوض صراع عسكري. وقد لعب ذلك دورًا كبيرًا.

المؤلــف: أود هنا ان أؤكد فكرتكم ودقة تقديراتكم بوثيقة عثرت عليها في الأرشــيفات الإنجليزية. وتتضمن هذه الوثيقة تقدير للنوايا الســوفيتية حيث يكرر الخبراء الإنجليز ما قلتموه الآن لّي: إن الحماســة الشــديدة التي تتحدث بها القيادة الســوفيتية الجديدة تعكس حالة ضبابيــة، ويصعب التنبؤ بها، وربما تحدث أخطاء في التقديرات في حال اندلاع حرب نووية. وقد تم إعداد الوثيقة قبل أسبوعين من الأزمة، وتعكس وجهة نظر القيادة والحكومة البريطانية.

د. شيبيلوف: أنا أيضا انطلقت من حقيقة أن عدم الاتزان الذي تصرف به خروشوف، واتســام تصريحاته بانعدام المسؤولية، هو ما أوحى للجميع بأن الاتحاد السوفيتي على استعداد للتدخل العسكري.

المؤلف: ألا تعتقد أن نجاح مثل هذا النوع من سياسة المغامرة، ومن ثم خطًأ خروشوف في تقدير قوة الرئيس كينيدي بعد لقائهما، قد دفعاه إلى مثل هذه المغامرة بنشر الصواريخ في كوبا؟ ألم يكن يتصرف تحت تأثير نشوته بانتصاره في أزمة السويس؟

د. شــيبيلوف: أعتقــد أنك على حق فيما تقول. رغم أنني كنــت قد خرجت من العمل السياســي حينها، حيث أبعدوني إلى جمهورية قيرغيزيــا. كان بمقدور كينيدي أن يختار الصدام العسكري، فقد كان رجلا حاسما، وبحارا سابقا، ويتسم بطابع صارم.

المؤلف: هل ترى أن خروشوف كان هو من يضع سياسة الدولة، أم بولجانين؟

د. شــيبيلوف: أعتقد أن خروشــوف هو من كان يصيغ السياسة الخارجية بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات. فيما كان بولجانين إنسانا قصير النظر، ومحدود التفكير، وغير حاسم،

وعلى الرغم من تهور خروشــوف أحيانا، إلا أنــك كنت تلحظ لديه بذور رجل حكيم، أما بولجانين فلم يكن يملك القدرة على الأخذ بزمام المبادرة أو اقتراح أفكار جديدة.

المؤلــف: وماذا عن مولوتوف، المســؤول الذي كان يشــغل وظيفتكــم قبلكم؟ كيف تقيمونه؟

د. شيبيلوف: هذا سؤال صعب. كان مولوتوف عضوا في الحزب منذ المؤتمر الرابع، وكان رفيقا للينين، ورجلا يبدو خاليًا من العيوب، ويعمل ليلًا ونهارًا. ذاع صيته بوصفه الرجل الثاني بعد ستالين. أذكر عندما دفن ستالين أن وقف جيورجي قنسطنطينوفيتش جوكوف يمسك بيده وســادة وعليها وسام. كان جميع المارشالات يحملون وسام ستالين. اقتربت وقلت: ما رأيك؟ مــن؟ أجابني: أعتقد أنه لا مجال للتفكير فكل الظروف تؤكــد أنه مولوتوف. ولكنك تعرف علاقتي به. مولوتوف شــخص قاســي الطباع، ولديه استعداد أن يقدم على إجراءات صعبة، ولكن يبدو أنه لا خيار آخر لدينا. ولكن خروشوف في النهاية هو من فاز وتوليه السلطة.

ثم حكي لي وزير الخارجية الأسبق كيف جمعته الظروف بمولوتوف ومالينكوف وكاجنوفيتش، ليكونوا بجانبه ضد تعيين خروشوف، ولكنه خسر الرهان في النهاية.

وقد استطاع كيس كايل، في كتابه الضخم "السويس. نهاية إمبراطورية في الشرق الأوسط على الطريقة البريطانية"، أن يعكس رد الفعل في العواصم الغربية على الإنذار الســوفيتي. وفي رسالة بعث بها إلى بن جوريون شككت القيادة السوفيتية للمرة الوحيدة في التاريخ في حقيقة وجود الدولة اليهودية نفسها. كان ذلك بمثابة "دوش" بارد لتل أبيب. كما تلقى الفرنسيون والإنجليز رسالة جاء فيها: نحن عازمون على القضاء ودحر المعتدين باستخدام القوة، وإعادة الســلام إلى الشرق. وفي الرسالة التي بعثت بها إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية اقترحت القيادة السوفيتية العمل معا لقطع الطريق على المعتدين، وكان الرد سلبيا بالطبع، ولكنهم في الوقت نفسه لم يدعموا الحلفاء.

وقد أولى مستشــارو أنطوني إيدن اهتمامًا خاصًا برســالة السفير الإنجليزي في موسكو، ويليام هيتير، المشفرة، والتي أكد فيها أن الحل الوحيد لإيقاف هؤلاء الناس[1] عن القيام بأي أعمال خطــيرة ومتهورة هو التوصل إلى تطابق للمواقف بــين الإنجليز والأمريكان. وقد أيد الكثيرون من مستشــاريه هذا الرأي. فالخوف من رد الفعل السوفيتي في الشرق الأوسط كان

١. الروس. المؤلف.

قائمًا وحقيقيًا. تمت دعوة السـفير الأمريكي في باريس، دوجـلاس ديلاك، للقاء مع رئيس الوزراء جي موليه، الذي توجه بسـؤاله إلى السفير عن الخطوات التي تعتزم أمريكا اتخاذها إذا انهالت الصواريخ السوفيتية على فرنسا. رأى السفير الخوف في أعين المجتمعين، كانوا خائفين جـدا، ورأيت الموت في عيونهم. صرح ديلاك بأن الولايات المتحدة سـتتصرف وفقا لمعاهدة الناتو، ولكن عندما أعلن رئيس الوزراء الفرنسـي عـن رغبته في الحصول على تأكيد بذلك من واشـنطن أجابه أن أمريكا تشهد انتخابات، حاليا، ولن تصل أي ردود من هناك خلال السـاعات القادمة، وهكذا كان إيدن وموليي على استعداد لوقف إطلاق النار، ولكن لحفظ مـاء الوجه أخذوا هذه الخطوة برعاية أمريكية، وليس بضغط سـوفيتي. أرسـلت المخابرات الأمريكية إلى موسـكو تعلمها بإمكانية إرسال متطوعين إلى الشرق الأوسط وإمكانية إرسال سلاح الجو السوفيتي إلى المطارات السورية.

تم عزل البلدان الثلاثة المعتدية تمامًا. ومع حلول صباح السـادس من نوفمبر كانت مصر وإسـرائيل قد اتفقتا على وقف إطلاق النار. وهوى الجنيه الاسترليني وأصبح الإفلاس يتهدد بريطانيا. ومع حلول مسـاء نفس اليوم وافقت كل من باريس ولندن على وقف إطلاق النار بعد أن فقدتا الدعم الأمريكي.

وفي يوم السادس من نوفمبر 1956 أيضا، بعث رئيس وزراء بريطانيا، إيدن، برسالة إلى نظيره السوفيتي أبلغه فيها أن حكومة إنجلترا قد أعطت أوامرها لقواتها المسلحة في مصر بوقف إطـلاق النار، بحلول منتصف ليلة السـابع من نوفمبر، وفي نفس اليوم أرسـل رئيس الوزراء الفرنسـي برسالة إلى رئيس مجلس الوزراء السوفيتي برسـالة أعلن فيها عن موافقة فرنسا على الوقف التام لإطلاق النار في مصر، بمجرد أن تصدر رغبة مماثلة من كل من مصر وإسرائيل، وبمجـرد أن تكون قوات الأمم المتحدة قادرة على تنفيـذ المهام الملقاة على عاتقها، وفي يوم الثامن من نوفمبر وصلت رسـالة مماثلة من رئيس الوزراء الإسرائيلي، بن جوريون، أعلن فيها عن وقف إطلاق النار من جانب القوات الإسرائيلية في مصر.

وعندما رأى الاتحاد السـوفيتي تحقق النصر اسـتمر في كسب النقاط، وخاصة في الدعاية لنفسـه في العالم. حيث قامت وكالة تاس، في يوم 10 نوفمبر 1956م، بالإشـارة إلى أن الشعب السوفيتي لن يقف سلبيًا وهو يرى هذه البلطجة الدولية، وأنه إذا لم تقم الدول المعتدية بسحب قواتها كاملة من الأراضي المصرية، فإن الحكومة السوفيتية لن تمنع المواطنين السوفيت الراغبين في المشـاركة في نضال الشعب المصري من أجل استقلاله. كانت تلك نقطة إضافية

في صالح السوفيت إلى جانب ما تحقق لهم خلال هذه الأزمة من نقاط كثيرة.

وقد نسب إلى الاتحاد السوفيتي الفضل في وقف الأعمال العسكرية ضد مصر. وفي يوم السادس من نوفمبر بعث الرئيس السوري، شكري القوتلي، ببرقية إلى رئيس مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي جاء فيها: إن الموقف العادل والنبيل والشجاع للاتحاد السوفيتي تجاه العدوان الإجرامي والبربري لدول الاستعمارية ضد مصر قد لقي ترحيبًا حارًا من الأمة العربية، التي تتعطش للسلام والحرية والسيادة. لقد كان لقراركم المجيد باتخاذ إجراءات سياسية وعسكرية لوقف العدوان، وفقا لمبادئ الأمم المتحدة، دور كبير في ضمان صداقة أبدية وامتنان عميق من العالم العربي.

وقد فضل المسؤولون السوفيت تجاهل الحديث عن الأمر الذي أصدره الرئيس الأمريكي، أيزنهاور، للدول الثلاثة بوقف الأعمال العسكرية وسحب قواتها من سيناء ومنطقة قناة السويس.

وليس هناك من شك في أن رد الفعل تجاه تأميم قناة السويس كان بمثابة آخر محاولة جادة لاستعراض الطموحات الإمبراطورية، ومحاولة الدول الاستعمارية وقف التطور التاريخي الجاري في العالم الثالث.

لم يكن هدف الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وإسرائيل من عدوانها على مصر إيقاف تأميم القناة وعزل عبد الناصر فقط. فقد أرسلت بريطانيا بقوات ضخمة أملا منها في الحفاظ على بقاء الإمبراطورية البريطانية، ولو في حالتها التي كانت عليها في منتصف خمسينيات القرن الماضي. كما كانت فرنسا تحارب في مصر من أجل الحفاظ على بقائها في الجزائر. أما إسرائيل فقد كان هدفها إضعاف مصر، وتحويلها، كأكبر وأخطر دولة عربية عليها، إلى المعسكر الغربي. وقد فشلوا جميعا فعليا في تحقيق هذه الأهداف. فقد خسروا الحرب في قناة السويس، وعلى الساحة الدولية أيضا. وسرعان ما سحبت بريطانيا وفرنسا قواتهما من منطقة القناة، كما انسحبت إسرائيل بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية من سيناء. وخلال سنوات قليلة فقدت فرنسا وإنجلترا كل مستعمراتهما تقريبًا.

شهدت الخمسينيات والستينيات موجات من الحركات الوطنية المعادية للغرب في الشرق الأوسط والأدنى. وكانت تلك الموجات تثور ثم تخفت، لكنها إجمالًا زادت وتضاعف عددها. وكانت موسكو تدعم العرب في نضالهم ضد الغرب، كما كانت تدعمهم، ولو بالتصريحات،

ضد إســرائيل، التي أصبحت في عيون العرب رمزاً للاستعمار الاستيطاني، وعميلا للغرب في المنطقــة. كانت مكانة وسمعة ونفوذ الاتحاد الســوفيتي في أوجها. لم تحدث خيبة الأمل بين العرب والســوفيت إلا فيما بعد. كانت العلاقات في تلك الفترة تقوى يومًا بعد يوم، وتتسع مجالات التعاون، باستثناء فترات تباطؤ حينما كان الشيوعيون العرب يتعرضون للاعتقالات، أو في حالة حدوث خلافات أيديولوجية تبدو الآن مثيرة للسخرية.

بالنسبة للإدارة الأمريكية كان عجز بريطانيا وفرنسا عن الدفاع عن مواقعهما في المنطقة، وتزايــد نفوذ ومكانة الاتحاد الســوفيتي، باعثا على القلق الشــديد، ومؤشــرًا يدفعها لاتخاذ إجــراءات عاجلــة، وفي الخامس من ينايــر 1957م توجه الرئيس أيزنهــاور إلى الكونجرس الأمريكي برسالة خاصة حول سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، حملت فيما بعد اسم "عقيدة أيزنهاور". وصف الرئيس الوضع في المنطقة بأنه حرج، وطالب بالسماح له باستخدام القوات المسلحة الأمريكية في أي وقت يعتبره مناسبًا وضروريًا، دون انتظــار موافقة الكونجرس. وقد أصر الرئيس أيضا على منحه تفويضًا بدعم بعض بلدان المنطقة عسكريًا واقتصاديًا. كما دعا البلدان العربية، في الوقت نفسه، إلى التخلي عن تعاونها مع الاتحاد الســوفيتي وحلفائه، ولم يكن ســرا أن عقيدة أيزنهاور لم تكن موجهة ســوى ضد الاتحاد السوفيتي.

وجاء رد الحكومة الســوفيتية ســريعًا، حيث نشــرت في 13 يناير 1957، تصريحا عبر وكالــة الأنباء الرسمية، "تاس"، تعقيبا على رســالة الرئيس الأمريكي إلى الكونجرس. وأطلقت الوكالــة على "عقيدة أيزنهاور" وصف "التدخل الوقح" في الشــؤون الداخلية للدول العربية، وأنها تتناقض ومبادئ الأمم المتحدة، وتحمل في طياتها تهديدا خطيراً للسلم والأمن في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى. وقد أعلنت الحكومة السوفيتية أن أهداف ’’عقيدة أيزنهاور‘‘ تحمل طابعًــا خبيثًا، وتفرض على المنطقة نظام الحماية العســكرية، وتحكم على خطط التنمية في هذه البلدان بالموت لســنوات طويلة. أما الحديث عن تهديد سوفيتي للبلدان العربية، فما هو إلا فكر مبني على الدسيســة والوقيعة. فالاتحاد السوفيتي معني فقط بأن يعم السلام في هذه المنطقة القريبة من حدوده، وأن تحقق بلدان المنطقة نجاحات في دعم اســتقلالها السياســي والاقتصادي. أما عن خطط الولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام قواتها المسلحة في منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، فقد رأت "تاس" أنها يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة، ستتحملها الحكومة الأمريكية بمفردها.

وفي 11 فبراير 1957م، اقترحت الحكومة السوفيتية مشروعا للمبادئ الأساسية لإعلان حكومات الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا حول قضايا السلم والأمن في الشرق الأوسط والأدنى، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبلدان المنطقة. كان من المفترض أن تشمل هذه المبادئ ما يلي:

1. الحفاظ على السلام عن طريق تسوية المنازعات بالطرق السلمية وحدها، وعن طريق المفاوضات.

2. عدم التدخل في الشؤون الداخلية لدول الشرق الأوسط والأدنى، واحترام سيادتها واستقلالها.

3. الامتناع عن أي محاولات لتوريط هذه البلدان في تحالفات عسكرية بمشاركة الدول العظمى.

4. نقل جميع القواعد العسكرية من أراضي هذه البلدان، وسحب جميع القوات الأجنبية منها.

5. الامتناع المتبادل عن توريد الأسلحة لهذه البلدان.

6. دعم التنمية الاقتصادية لبلدان الشرق الأوسط والأدنى، دون فرض أية شروط سياسية أو عسكرية أو غيرها يمكن أن تمس بسيادتها وكرامتها.

ويمكن الإشارة إلى أن تصريحات الحكومة السوفيتية قد تضمنت عددًا وافرًا من العناصر البناءة، والتي كان من الممكن أن يبنى عليها في التوصل إلى اتفاقات تسهم في دعم السلام والأمن في الشرق الأوسط والأدنى. غير أن الموافقة على مقترحات كهذه كانت تعني تراجعًا صريحًا للغرب، وإضعافًا لمواقعه. كانت الأفكار التي تطرحها الإدارة الأمريكية سلبية في معظمها. ومن الصعب القول إن أيا من الطرفين كان يبحث في تلك الفترة عن مكتسبات دعائية في ظروف الحرب الباردة السائدة. فأخذا في الاعتبار الوضع القائم والأجواء التي سيطرت في العواصم الغربية في تلك الآونة، لم يكن من المستغرب على الإطلاق أن يرفض دالاس المبادرات السوفيتية، بوصفها لعبة تهدف إلى إرغام الغرب على الاعتراف بالاتحاد السوفيتي بوصفه الدولة الأعظم نفوذًا في الشرق الأوسط، ويمكن القول إن تلك الفترة شهدت رواجًا للدعايات المعادية للغرب، وكان في مقدور القيادة السوفيتية أن تستغل هذا الأمر،

لا سيما بعد النجاحات السياسية الهامة التي حققتها، ولكنها كانت غير معنية بإبرام اتفاقيات مع الغرب والذي كان بمقدوره تقييد حرية تحركات موسكو في المنطقة.

وفي أغسـطس 1957م، وقع وزير الدفاع السـوري، خالد العظم، في موسكو، اتفاقية تعاون عسـكري واقتصادي. وبعد عودته إلى دمشـق تم إعلان ثلاثة أشـخاص في السفارة الأمريكية غير مرغوب فيهم لاتهامهم بالتآمر لإحداث انقلاب عسـكري في البلاد، وإعادة الديكتاتور الموالي للغرب، أديب الشيشكلي. كان الجميع ما زالوا يذكرون الانقلاب الذي وقع ضد مصدق في إيران، ودور الولايات المتحدة الأمريكية فيه. ولذا فقد كانت احتمالات تورط الولايـات المتحدة الأمريكية وأجهزتها المخابراتية ضد الحكومة السـورية كبيرة جدًا ومنطقية، وسرعان ما عين وزير الدفاع السوري رئيسا جديدًا للأركان، وهو عفيف البزري، وهو ضابط معروف بميوله الشيوعية الواضحة. وتكون انطباع في واشنطن والعواصم الغربية بأن الشيوعيين سيسـتولون قريبا على السـلطة في سوريا، وأخذت رسـائل أجهزة المخابرات والسفارات في بيروت وبغداد وعمّان تهول من نفوذ وقوة الشـيوعيين في سوريا، وقدرة الاتحاد السوفيتي على التدخل في الأحداث السورية.

وفي نهاية أغسـطس أوفد إلى الشـرق الأوسط مبعوث خاص للرئيس أيزنهاور يدعى لوي هندرسـون مندوب الولايات المتحدة الأمريكية في مجلس حلف بغداد. وقد أجري هندرسون مباحثات مع قادة كل من العراق والأردن وتركيا ولبنان حول فرص التدخل في سوريا. وكتب أيزنهاور في مذكراته أن الإدارة الأمريكية توصلت بالإجماع إلى رأي مفاده أن النظام الحالي في سوريا يجب أن يرحل، وإلا فإن الشيوعيين سرعان ما سيستولون على السلطة هناك.

وحشدت تركيا قواتها على طول الحدود السورية، كما تواجد الأسطول السادس الأمريكي في شرق المتوسط، وبدأت الولايات المتحدة في نقل الأسلحة إلى الأردن والعراق ولبنان.

وقام الاتحاد السـوفيتي بدعاية ضخمة ضد تركيـا وأمريكا وحلف بغداد وبعث بعدد من المذكرات شديدة اللهجة إلى الحكومة التركية.

وفي العاشـر من سبتمبر 1957م، أرسـل رئيس مجلس الوزراء السوفيتي رسالة إلى نظيره التركي، أشار فيها إلى أنه أخذا في الاعتبار قرب منطقتي الشرق الأوسط والأدنى جغرافيا من الحدود السوفيتية، وما يمثله ذلك من أهمية بالنسبة للأمن القومي للبلاد، فإن تطور الأحداث في المنطقـة لا يمكـن إلاَّ أن يكون محل اهتمام القيادة السـوفيتية، حتى لا يحدث أي صدام

عســكري في المنطقة. وتوجهت الحكومة السوفيتية بدعوة إلى نظيرتها التركية بعدم المشاركة في التدخل العســكري في ســوريا، وأن تدعم تخفيف التوتر في الشرق الأوسط كما حذرت من أن تجني تركيا على نفســها مصاعب وكوارث كثيرة، إذا ما أنصت الأتراك إلى نصائح الدوائر الأجنبية التي لا يهمها دعم الســلام في الشرق الأوســط والأدنى. وجاء تصريح وكالة تاس الســوفيتية حول الوضع في الشرق الأوســط والأدنى حاملا نفس المضمون. وصدر التصريح بتاريــخ 19 أكتوبر 1957م. ودعا الاتحاد الســوفيتي الأمم المتحــدة للتدخل العاجل في الأحداث حتى تقطع الطريق على فرص نشــوب وانتشار حروب جديدة، وأعلنت الوكالة أنه في حالة الهجوم على ســوريا؛ فإن الاتحاد الســوفيتي سيتخذ ما يلزم من إجراءات حتى يقدم الدعم والمســاعدة لضحايا العدوان. واحتدمت التصريحات في الدعايات الغربية والسوفيتية، غير انه لم يكن في نية الاتحاد السوفيتي التدخل على الرغم من إطلاقه إشارات توحي بذلك.

وفي سبتمبر قام الطراد البحري العسكري السوفيتي بزيارة ودية إلى ميناء اللاذقية السوري. ومع نهاية الشهر خضع القادة العرب الذين كانوا ينوون المشاركة في العمليات العسكرية ضد سوريا لضغوط مواطنيهم وشعوبهم، التي كانت تكره الغرب بشدة، وتراجعوا عن خططهم التي افتقدت إلى التأييد الشعبي، ومثلت خطورة على الوضع الداخلي أيضا. بقيت الورقة التركية. ولكن كان اللعب بهذه الورقة يمثل خطورة سواء من الناحية السياسية أو العسكرية.

وقد قام عبد الناصر بإشارة حسن نية، في الثالث عشر من أكتوبر، حين أنزل قواته المظلية في سوريا، وفي الرابع والعشرين من أكتوبر تم تعيين المارشال قنسطنطين روكوسوفسكي، والذي يحظى بشــعبية كبيرة منذ الحرب العالمية الثانية، قائدا لجيــش منطقة ما وراء القوقاز، وقامت قواتــه بإجراء مناورات برية وبحرية وجوية في منطقة ما وراء القوقاز والبحر الأســود. ووصلت الأزمة إلى ذروتها.

غير أن كلًا من الاتحاد الســوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية حاولا تجنب الصدام قدر الإمكان، وقد ظهر خروشوف فجأة، يوم 29 أكتوبر، في حفل استقبال في موسكو بمناسبة العيد الوطني لتركيا، وصرح بأنه يدعم الحل الســلمي للأزمــة. كما رفضت العواصم الغربية التدخل في الشؤون السورية، وبدأت الأزمة تنفرج تدريجيا.

وتوقف الضغط الدولي على ســوريا في نهايــة أكتوبر. غير أن الوضع الداخلي ظل متوترا بشــدة، حيث لم يكن هناك وضوح لمعادلة موازين القوي في البلاد. وقررت القيادة الســورية

وقيادة الضباط العليا أن تقيم تحالفا مع مصر، خوفًا منهم من سيطرة الشيوعيين، وفي الأول من فبراير 1958م ظهرت دولة جديدة تحمل اسم الجمهورية العربية المتحدة.

وبدا أن العملية السياسية تسير في اتجاه دعم الوحدة العربية، وتوسيع حدود هذه الجمهورية بضم بلدان جديدة، واستشعرت الأنظمة الموالية للغرب في العراق والأردن ولبنان الخطر. وقامت الأسرتان الهاشميتان في كل من الأردن والعراق بتوثيق التعاون فيما بينهما.

وفي لبنان، الذي وافق في عام 1957 على عقيدة أيزنهاور، كانت المشاعر المعادية للغرب والموالية لعبد الناصر في ذروتها. وانزلقت البلاد إلى الحرب الأهلية.

وفي شرق المتوسط بدأت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية تحشدان قواتهما المسلحة. ونوقشت خطط للتدخل في سوريا مع إمكانية الاستعانة بالجيش العراقي.

وفي يوليو 1958م، أعطى رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد، عم الملك، أوامره للقوات العراقية بالتوجه إلى الأردن. كانت هناك تحضيرات لعملية مشتركة ضد سوريا في حال ما اقترب الموالون لعبد الناصر من الانتصار في لبنان. وفي المقابل دخلت قوات يقودها عبد الكريم قاسم مدينة بغداد، وقامت بانقلاب عسكري. وتم القضاء على الملكية وإعدام نوري السعيد وقتل الملك فيصل الثاني. وفي 14 يوليو، تم إعلان الجمهورية العراقية، وسرعان ما انسحب العراق من حلف بغداد، الذي تم تغيير اسمه إلى منظمة المعاهدة المركزية (CENTO)، وقام عبد الناصر بزيارة سرية إلى موسكو.

وطلبت حكومتا لبنان والأردن الدعم من الغرب، فأرسلت الولايات المتحدة قوات إلى لبنان في 15 يوليو، وقامت بريطانيا بإرسال قوات إلى الأردن في 17 يوليو، وعبرت هذه القوات المجال الجوي الإسرائيلي في طريقها إلى هناك. فقام عبد الناصر بزيارة ثانية خلال مدة قصيرة إلى موسكو، حتى يتعرف على نوايا القيادة السوفيتية. لكن خروشوف لم يكن عازمًا على التدخل. كل ما حدث هو الإعلان عن مناورات سوفيتية بلغارية مشتركة على الحدود البلغارية التركية.

أصبحت قواعد السلوك المتبعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط محفوظة للجميع. كانت التصريحات تصدر، ومن ثم مظاهرات ضخمة تندلع، وفي الوقت نفسه كان الجميع يعملون على اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتجنب الصدام المباشر.

وفي 19 يوليو 1958م، بعث خروشوف برسائل سياسية إلى رؤساء حكومات أمريكا وإنجلترا وفرنسا والهند. أنكرت القيادة السوفيتية تأكيدات الدول الغربية العظمى حول تدخل الجمهورية العربية المتحدة في الشؤون الداخلية للأردن ولبنان، ووصفت دخول القوات الأمريكية والبريطانية إلى هذين البلدين بأنه خرق فاضح لميثاق الأمم المتحدة، وعدوان غير مبرر. ورغم ذلك دعت القيادة السوفيتية إلى اجتماع عاجل لرؤساء الحكومات السوفيتية والأمريكية والإنجليزية والفرنسية والهندية، بحضور الأمين العام للأمم المتحدة، لاتخاذ ما يلزم من إجراءات عاجلة لإنهاء الأزمة.

وقامت القيادة السوفيتية بإصدار تحذير شديد اللهجة إلى أنقرة، التي منحت الولايات المتحدة الأمريكية الحق في استخدام قاعدتها العسكرية، إنجيرليك، كقاعدة انطلاق للقوات الأمريكية المتجهة إلى لبنان.

وشهدت الفترة اللاحقة سلسلة من تبادل الاتهامات، ومذكرات الاحتجاج، والتصريحات، في الأمم المتحدة. وعلقت الدول الغربية إيجابيًا على رسالة خروشوف، لكنها وضعت في الوقت نفسه شروطًا إضافية، تم رفضها من قبل الحكومة السوفيتية. لم تكن الدول العظمى الغربية أو الاتحاد السوفيتي على استعداد للقاء، ولم يسعوا إليه.

وفي أثناء الأزمة الأردنية واللبنانية أعلنت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عن استعدادهما لاتخاذ قرارات حاسمة من أجل الدفاع عن حلفائهما. وبقيت الأنظمة الموالية للغرب في البلدين في السلطة، وأبدى الاتحاد السوفيتي حذرًا شديدًا في القيام بإجراءات عملية، ولكنه في الوقت نفسه أخذ يدعم الأنشطة السياسية المعادية للغرب، ويقود حملة دعائية، ما جلب له مزيدا من الأنصار والمؤيدين من سكان العالم العربي. وفي الثاني من أكتوبر سحب الإنجليز قواتهم من الأردن، وتلتهم أمريكا من لبنان في 25 من الشهر نفسه.

وقد أثار قيام الجمهورية العربية المتحدة مشاعر مختلطة في موسكو. فمن ناحية كانت خطوة تدعم القوى المعادية للإمبريالية في الشرق الأوسط والأدنى. ولكن من ناحية أخرى كانت هناك آمال كبيرة معقودة على اليساريين والشيوعيين في سوريا، حيث كانوا محل ثقة

أكبر. كان عبد الناصر ما زال يثير شكوكا، ولم يستطيع القادة السوفيت التخلص بسرعة من الفكرة القديمة، أن لديه ميولا برجوازية قومية. وقد أعلن أكثر من مرة، سواء في مصر أو سوريا، أنه لن يسمح بقيام منظمات سياسية مستقلة، بما فيها الشيوعية.

وعندما انتهت أزمة الأردن ولبنان بلا نتيجة بدا أن الشيوعيين يقفون ضد حمى توحيد الدول العربية. فقد قاد الشيوعيون في العراق وسوريا حملة مكثفة ضد عبد الناصر. ورد الأخير بحملة واسعة معادية للاتحاد السوفيتي والشيوعية في وسائل الإعلام، ثم أرسل الشيوعيين في مصر وسوريا إلى ما وراء القضبان.

ودخلت القيادة السوفيتية في سجال مع عبد الناصر وأجهزة الدعاية في مصر رغما عنها، وفي التقرير الختامي للمؤتمر الحادي والعشرين من مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي قال خروشوف:نحن الشيوعيين، وكل القوى التقدمية، نتعاطف بالطبع مع كل من يناضل من أجل إرساء العدالة الاجتماعية. ولا ننكر أن هناك بعض الاختلافات الأيديولوجية بيننا وبين بعض القادة في الجمهورية العربية المتحدة. ولكننا في الوقت نفسه نتفق معهم تمامًا في رؤيتنا للنضال ضد الإمبريالية، ومن أجل دعم الاستقلال السياسي والاقتصادي للبلدان التي تحررت مؤخرًا من نير الاستعمار، وتناضل من أجل تجنب الحروب ومخاطرها. هنا مواقفنا متطابقة تماما.

وفي يناير 1961م، نشرت صحيفة البرافدا معلومات منقولة من الصحيفة الشيوعية الإيطالية "أونيتا"، فحواها أن السلطات المصرية قد ألقت القبض على 200 شيوعي، وأرسلتهم إلى المعتقل حيث انضموا إلى 800 آخرين، معتقلين منذ سنوات طويلة بسبب نضالهم من أجل الديمقراطية.

وفي 29 مايو 1961م، تم نشر مقالة عن وفاة فرج الله حلو، زعيم الشيوعيين اللبنانيين. وتم إلقاء القبض عليه في دمشق، وتعذيبه حتى الموت من قبل البوليس السري في مصر. ونشرت الصحف السوفيتية تصريحات منقولة عن جمعيات ومنظمات دولية تطالب بالإفراج عن حلو. وفي 31 مايو، ردت البرافدا على الهجوم الذي شنته صحيفتًا الأهرام والمصور ضد الشيوعيين بمقالة تحمل عنوان "معلق على الأحداث".

وفي تلك الفترة انتشرت في سوريا مشاعر عدم الرضا عن الوحدة مع مصر، وتنامت هذه المشاعر بعد إصدار عبد الناصر قرارات التأميم لأملاك البرجوازية الوسطى والكبرى في سوريا، وفي 28 أكتوبر 1961، قامت القيادة العليا للضباط في سوريا بانقلاب مضاد لعبد الناصر،

وأصبحت سوريا دولة مستقلة من جديد. كانت الضربة الموجهة لأحلام عبد الناصر في إقامة تحالــف عربي قاصمة. إلا أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة قيم، بواقعية حقيقة، أن الاتحاد السوفيتي، أو الشــيوعيين، ليسوا هم من دعموا الانقلاب وعاد سريعًا إلى السياسة البرجماتية في تعاونه مع الاتحاد السوفيتي.

وقد فهمت القيادة الســوفيتية ضرورة الرهان على مصر كونها دولة محورية، والأكثر نفوذا، والأهم من الناحية الاستراتيجية في العالم العربي.

وشهد تطور العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ودولة العراق ما بعد الثورة بعض التعقيدات. فقد انتهت محاولات إرســاء علاقات شــراكة مع العراق إلى نتائــج مؤلمة، وفقدان الأمل في موســكو، ومع اســتلام نظام عبد الكريم قاسم للحكم سيطرت مشــاعر القلق والتوتر على القيادة الســوفيتية حيال الموقف في العراق، وأثناء الاحتفال الذي جرى في بغداد، بمناســبة الذكرى الســنوية الأولى للثورة، اندلعت صدامات دموية في أحد شوارع كركوك، كبرى مدن الشــمال العراقي، حيث وقعت صدامات بين الأكراد والتركمان. وتدخل الشيوعيون المحليون أو من أطلقوا على أنفســهم شيوعيين، وأخذوا يصفون حساباتهم مع خصومهم السياسيين، وفي الموصل قتل المئات من البعثيين، وقمع قاسم الاضطرابات بالقوة.

غير أن الشيوعيين وحلفاءهم قاموا بترهيب معارضيهم السياسيين، واستغلوا المنابر الثورية. وتم إعدام الكثيرين.

وخوفًا من الشــيوعيين، وفي ظل انعدام الثقة بهــم، قام الدكتاتور العراقي بتعقبهم. حيث تم الحكم على بعضهم بالإعدام، ولم يســتطع الشــيوعيون طوال حكم هذا النظام معارضته علانية.

لم يثر الإرهاب الشــيوعي في العراق أي ردود فعل، أو كلمة اســتنكار أو ترحيب في أي مطبوعة روسية. فقد كانت تصفية الحساب بين الكبار تجري على أراضي العالم العربي، حيث صورت الدعايات الغربية والناصرية شــخصية الرجل الشــيوعي بوصفه قاتلا، وانتشرت هذه الصورة حتى في العراق نفسها.

وفي صيف 1961، اندلعت أزمة الكويت. وربما يساعدنا ذلك في فهم الموقف السوفيتي تجــاه الحكومة الكويتية، حينها، في اســتيعاب الأحداث الــتي وقعت في الكويت لاحقا في صيف 1990 وحتي شتاء 1991م.

ففي 19 يونيو 1961م، جمدت بريطانيا معاهدة الحماية على الكويت، والموقعة بتاريخ 1899م. وبعد ستة أيام صرح قاسم أن الكويت هي جزء لا يتجزأ من العراق. وأصرت الحكومة السعودية على أن الكويت جزء منها، وفي الأول من يوليو، وبطلب من أمير الكويت، قامت بريطانيا بإنزال قواتها في الإمارة الصغيرة. وفي السادس من يوليو صرح قاسم أنه وعلى الرغم من أن ضم الكويت يعد هدفا رسميًا لبلاده، إلا أنه سيسعى لتحقيق ذلك بالسبل السلمية. وقد تلاعبت القيادة السوفيتية بقيادة العراق عندما رفضت قبول الكويت عضوًا في الأمم المتحدة.

وعندما سقط نظام عبد الكريم قاسم، في 8 فبراير 1963م، سارع الاتحاد السوفيتي بتغيير موقفه. وفي السابع من مايو من العام نفسه اتخذ مجلس الأمن قرارا بالإجماع بقبول إمارة الكويت عضوًا في الأمم المتحدة.

وبعد فقدانه للظهير المجتمعي، وبعد أن وجه ضرباته لكل الأطياف والتيارات، كان عبد الكريم كمن حكم على نفسه بالموت. وسرعان ما وقع الانقلاب الجديد. كان هناك بعض الدبلوماسيين السوفيت العاملين في العراق في تلك الفترة، وكذا كثير من الشيوعيين العراقيين. أكد هؤلاء جميعهم أن الحزب الشيوعي كان يمتلك من القدرة أن يقوم بهذا الانقلاب بنفسه منفردا. وظل السبب في عدم قيامه بذلك حينها مجهولًا، حتى يومنا هذا، ربما كانت هناك معارضة من القيادة السوفيتية حينها، أو أن الحزب كان قد فقد دعم القوات المسلحة له. تم طرد حكومة قاسم، والتي كان يهيمن عليها أعضاء حزب البعث. وشغل الجنرال عبد السلام عارف منصب الرئيس، أما الجنرال أحمد حسن البكر، شديد القرب من البعثيين، فتم تعيينه رئيسا للوزراء. كما تم تعيين على صالح السعدي، الأمين العام لحزب البعث، نائبا لرئيس الوزراء، ووزيرا للداخلية، وقائدًا للحرس الوطني الذي يمثل الذراع المسلح للجناح الراديكالي للحزب. وكانت الشخصية الثالثة في الحكومة هي العقيد صالح مهدي قماش وزير الدفاع.

وجرت اعتقالات جماعية، وعمليات تصفية دون محاكمات، وتعقب للشيوعيين والناصريين، وكان الحرس الوطني هو من يقوم بتلك الإجراءات في معظمها. كان ذلك بمثابة كابوس من الاعتقالات والتعذيب والقتل، شمل كل طبقات المجتمع العراقي.

كان حجم القتل كبيراً، لدرجة إقدام الحزب الشيوعي السوفيتي على خطوة نادرة، حيث نشر، يوم 16 فبراير 1963، تصريحًا رسميًا ينتقد الإرهاب الدموي ضد الماركسيين والشيوعيين العراقيين.

وفي التاسع من مارس قام اللواء رشيد مصلح، محافظ بغداد، بالإعلان من إعدام ثلاثة من زعماء الحزب الشيوعي، وهم سلام عادل، ومحمد حسين، وحسن عويني. وفي الرابع عشر من مارس اندلعت مظاهرة ضخمة أمام السفارة العراقية في موسكو، والتي رافقتها تهديدات وتحطيم لزجاج المبنى (في حالة نادرة الحدوث للتعبير عن الاحتجاج في تلك السنوات، الأمر الذي يعكس قلق القيادة السوفيتية الشديد). وفي يوليو تم إعدام عضوي المكتب السياسي في الحزب الشيوعي العراقي، جمال الحيدري، ومحمد صالح.

وكانت ثورة الأكراد التي بدأت أثناء حكم عبد الكريم قاسم قد نالت دعمًا كبيراً من القيادة السوفيتية. كانت القضية الكردية تمثل عامل ضغط على الحكومة العراقية، وكان من الممكن استخدام هذه القضية عند الضرورة. إلا أن هذه الثورة نفسها قد اتسمت بديناميكية خاصة بها، ولم تكن خاضعة بأي حال من الأحوال لسيطرة موسكو، وفي السادس عشر من يونيو اتهمت موسكو الحكومة العراقية، رسميًا، بالتطهير العرقي للسكان الأكراد المسالمين في القرى والمدن. كما جاء في تصريح الإدانة أيضا أن الحكومة العراقية تنتهج سياسة تتناقض والقوانين الإنسانية الأساسية، وخريطة الأمم المتحدة. وبعدها بأربعة أيام فقط نشرت صحيفة البرافدا مقالًا بعنوان "أوقفوا الجرائم في العراق".

ومع حلول خريف عام 1963م، وعلى الرغم من بقاء العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين البلدين، إلاَّ أن الدعاية السوفيتية ضد العراق كانت قد وصلت إلى ذروتها في وسائل الإعلام، واتسمت بالقسوة والحدة.

ولكن، ومع حلول صيف العام نفسه، حدث شقاق كبير في داخل حزب البعث، حيث ابتعد المعتدلون من حزب البعث، وبصحبتهم عدد من الناصريين وحركة القوميين العرب، عن السعدي، وضمن ذلك نجاحًا مؤكدًا للانقلاب الذي قام به اللواء عبد السلام عارف في 18 نوفمبر 1963م، حيث كان الحزب مقسمًا بين ثلاثة أجنحة متصارعة، ولقي الانقلاب ترحيبا في موسكو. وعلى الرغم من أن الحكومة الجديدة في العراق لم تتعاطف كثيرا مع الشيوعيين، إلا أنها قامت بحل الحرس الوطني، وكان من شأن تخفيف عمليات التنكيل بالشيوعيين، ووقف عمليات القتل ضدهم، أن يخفف كثيراً من موقف خروشوف.

وشـرعت الحكومة السـوفيتية في دفع بغداد والأكراد إلى التصـالح، كما رحبت بوقف الأعمـال العدوانية بـين الإخوة، وجاء ذلـك في برقية بعث بها خروشـوف في 15 فبراير 1964م إلى عارف.

وفي الغرب، أدى النضال الوطني التحرري لشعوب شمال أفريقيا، إلى إعلان استقلال كل من المغرب وتونس من الاحتلال الفرنسي في عام 1956م.

وحافـظ البلدان على علاقة قوية مع الغرب. أما الجزائر فقد شـهدت نضالًا دمويًا ضد الفرنسيين من أجل التحرر والاستقلال، وقد دعم الاتحاد السوفيتي الحكومة المؤقتة في جمهورية الجزائر. وبعد إعلان الاسـتقلال، في عام 1962م، تدهورت العلاقات الجزائرية الفرنسـية، فكان الاتحاد السـوفيتي أول دولة تقدم المسـاعدة لحكومة بن بيلا، الذي كان قد أعلن عن ميوله للتحالف للمعسكر الاشتراكي.

ورغـم ذلك، ومهمـا كانت معاداة العراق للإمبريالية، ومهما كانت المشـاعر الطيبة من القادة السوفيت تجاه الجزائر، فإن خروشوف قد اعتمد بالأساس على مصر في صياغة سياسته لمنطقة الشرق الأوسط. كان التعاون بين البلدين يزداد قوة ومتانة، وقد توج بالزيارة الاحتفالية الطويلة التي قام بها رئيس الدولة السوفيتية إلى مصر. وقد وفر جمال عبد الناصر كافة الأجواء المناسبة لذلك حيث قام بالإفراج عن أغلب المعتقلين من الشيوعيين.

وفي التاسـع من مايو 1964م وصل نيكيتا خروشـوف، على رأس وفد حزبي وحكومي كبير، إلى مدينة الأسـكندرية على مـتن الباخرة أرمينيا. واسـتقبلت مصر الضيف كما لم تستقبله دولة في العالم، تجمعت أمواج البشر، وكان المشهد مهيبا بحيث لا يمكن للضيف أن يتجاهله، كان اسـتقبالًا صادقًا من القلب. كان المصريون يرون في خروشـوف زعيما لدولة عظمى، خاطر لإيقاف العدوان الثلاثي على مصر، ومنح القوات المسـلحة المصرية أسـلحة وتجهيـزات حديثة، ما ضاعف من قوة الجيـش، كما قدم لمصر دعمًا اقتصاديًا وفنيًا ضخمًا سمح لها بالبدء في عملية تصنيع واسـعة النطاق. وأخيرا وافق خروشـوف على المسـاعدة في تحقيق الحلم الشعبي ببناء السد العالي.

وقبل ذلك زار مصر رئيس الوزراء الصيني تشو إن لاي. وقد قوبل باستقبال طبيعي لائق، ولكنه بارد بعض الشـيء. كان عبد الناصر يراهن على خروشوف، ولم يرد إغضابه بالتآخي مع المنافسين الصينيين.

وقد منح عبد الناصر خروشوف أعلى الأوسمة في مصر، وهو قلادة النيل. وقام خروشوف بخطوة مماثلة، ومنح عبد الناصر ورفيقه المشير عبد الحكيم عامر لقب بطل الاتحاد السوفيتي، ووسام لينين، وهو الأمر الذي أثار بعض الغضب داخل الاتحاد السوفيتي. ولم يحصل على هذا الوسام من الزعماء الأجانب في عام 1963م إلا رئيس الجزائر بن بيلا. وقال أناتولي جروميكو لي ذات مرة: لم يكن خروشوف يستشير أي أحد بهذا الخصوص، ولو كان والده.

وفي 13 مايو 1964م ضغط الزعيمان سويا على زر التفجير، كي يحولوا مجرى النيل إلى قناة خاصة، والسماح بالبدء في تشييد السد العالي.

وقد أثار عبد الناصر انطباعًا جيدًا لدى القيادة السوفيتية. فقد تمتع بجاذبية شخصية بوصفه رجل دولة أعجب به خروشوف كثيراً وتعاطف معه. أصبح عبد الناصر حليفًا استراتيجيًا للاتحاد السوفيتي في العالم العربي، وفي أفريقيا، وفي آسيا. وعندما اندلعت الثورة اليمنية في سبتمبر 1962م تم التنسيق مع مصر، إلا أن النظام الجمهوري بدًا معرضا للخطر من مؤيدي المملكة العربية السعودية والغرب. فأرسل عبد الناصر قواته لمساعدة الجمهورية، كانت مصر تمثل أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية، وكانت القاهرة بمثابة قبلة للكثير من الثوار العرب والأفارقة المعارضين للغرب، وقد طرد عبد الناصر أو أمم رأس المال الأجنبي، كما قام بتأميم الملكية الخاصة للطبقة البرجوازية المتوسطة والكبيرة، كما قام أيضا بإصلاحات زراعية، حيث منح العمال والفلاحين 50% من نسبة التمثيل في أجهزة الحكم، ووافق على خريطة السياسات الوطنية، والتي كانت في أغلبها قريبة ومماثلة لنماذج أيديولوجية سوفيتية، وهو ما سمح لصحيفة البرافدا أن تكتب مقاله افتتاحية قائلة: إن القوى الثورية الأكبر على الساحة الآن تتمثل في المنظومة الاشتراكية العالمية بقدراتها المتنامية، ونضال البروليتاريا في بلدان رأس المال، والحركة الوطنية التحررية. كل هذا ينصهر سويًا في نسيج واحد، ويوجه ضربة موجعة إلى منظومة الإمبريالية والاستعمار في العالم.

كان عبد الناصر مناسبًا للجميع. وكان ما ينقصه فقط أن يفهم جوهر الاشتراكية العلمية، وأن يصبح ماركسيًا مثل فيديل كاسترو، وعندها كان سيحدث التجانس الكامل في العلاقات المصرية السوفيتية، بقيت فكرة الرسالة التي يجب أن تلعبها الدولة تهيمن على فكر خروشوف، وكان أحيانًا يعبر عنها في خطاباته.

في العاشـــر من مايو، وفي أثناء لقائه بالشـــباب المصري في القاهرة، أعرب خروشوف عن إعجابه بالشـــعب المصري المحب للحرية، والذي ثار ضد الاســـتغلال الرأسمالي. وأضاف: إن أمام الشـــباب في بلادكم فرصة كبيرة للعمل والإنتاج. وتمثل الاشـــتراكية الطريق الوحيد الذي يســـمح بالنجاة، وفي فـــترة قصيرة، من الفقر والتخلف، ويضمن الحياة الحرة والســـعيدة لكل الكادحين، وأتمنى لكم، يا شـــباب الجمهورية العربية المتحدة، تحقيق نجاحات كبيرة على طريق البناء الاشتراكي.

وقد تحدثت الدعايات الناصرية الرسمية عن المجتمع المصري بوصفه مجتمعًا اشـــتراكيًا، لكن الضيف عاد وأكد ان الدول النامية تقف فقط في بداية طريق البناء الاشـــتراكي. ويعني ذلك أن ما أنجز هو الخطوات الأولى، فحسب، في هذا الاتجاه. فكيف لهذه البلدان بما فيها مصر أن تمضي قدما؟ يجب عليها أن تتبع النموذج السوفيتي.

وقد ذكر الحضور بأن الانجازات التي تحققت في الاتحاد السوفيتي مثل تأميم الصناعة والمزارع الجماعيـــة تعكس تحولنا من دولة متخلفة إلى دولة عظمى اشـــتراكية قوية. وباختصار كانت الدعوة : اتبعونا فهذا هو الطريق الوحيد الصحيح.

وفي أسوان لم يرق خطاب الرئيس العراقي عبد السلام عارف إلى خروشوف، حيث أصر عـــارف على تكرار مصطلحي القومية العربية والإســـلام. وقد خرج خروشـــوف عن النص المعد ســـلفا، وأخذ يتحدث بما يدور في خلده. قال: أنه لم تكن لدى الاتحاد الســـوفيتي أية نوايا لمســـاعدة العرب بشـــكل عام. وأنه قد هب لمساعدة مصر التي ناضلت ضد الإمبريالية والاســـتعمار. وأن الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وكل القوى التقدمية في البلاد تستطيع التحـــرك قدما للأمام وبناء حياة جديدة. وأشـــار إلى أن ذلك يعد التطبيق الأمثل لفلســـفة لينين، التي انتصرت وســـادت في الاتحاد الســـوفيتي، والتي تحقق انتصـــارات يوم بعد يوم في مختلـــف بلدان العالم. كان مفهوم القومية العربية يعني بالنســـبة إليـــه الوحدة العربية بين كل العمال العرب وكل الكادحين ضد الإمبريالية والمســـتغلين والاستعماريين والاحتكاريين ومن أجل انتصار الكادحين. واقترح أن يكون الشعار أيها العرب! اتحدوا! كما انتشرت الدعاوى مثـــل: البروليتاريون العرب والفلاحون العرب والمثقفون التقدميون العرب وكل الكادحين يجب أن يتحدوا من أجل الحرية والاســـتقلال ومن أجل بناء حيـــاة جديدة ومن أجل الدفاع عن حقوقهم ضد أي استغلال أجنبي أو قومي.

وتحـدث الرئيس عبد الناصر إلى ضيفه بلهجة رقيقة حـول رؤيته لمفهوم الوحدة العربية. وصرح أن هذا الشـعار ليـس عنصريا على الإطلاق، بل هو يعكـس واقعيًا تاريخيًا أصيلًا. فالعـرب في رأيـه كانوا دائمًا أمة واحـدة، تجمعهم وحدة البقاء المـادي، والوعي، والرؤية المشتركة.

وكانت آخر أيام الزيارة رحلة صيد، وزيارة القناة السويس على متن اليخت الحرية، واجتمع على ظهر اليخت كل من خروشوف وعبد الناصر وبن بيلا وعارف. غير أن خروشوف أصر مرة أخرى على مناقشة موضوع الدين والقومية مع الرؤساء، فنسوا موضوع الصيد تمامًا.

وأورد هنا ما قصه علي المترجم والدبلوماسـي والأديب، وجامع التحف المصرية القديمة، والمثقـف المعروف، أوليج موفتونوفيتش: كان خروشـوف والمحيطون به يعتقدون أن الزعماء العرب مشغولون بقضية الدين أكثر من اللازم. ولهذا السبب قرر خروشوف أن يعطيهم درسًا في التنوير. حيث بدأ يحكي لهم على متن اليخت القصة التالية: أذكر كان لدينا بابا. كانت لديه عشـيقة، قتلها وقطع جسـدها أجزاء. أنظروا إلى أي حد يمكن للدين والإيمان بالله أن يقود الإنسـان. شعر الرؤسـاء ببعض الحرج وقال عبد الناصر برفق: أرى أن الدين هنا ليس هو مذنبا في شـيء. هناك قساوسة أخيار وآخرون أشرار. ربما هناك من الشيوعيين أيضا من يرتكب جرائم. غضب خروشـوف فجأة وقال: كل يرى أن ما يعتقده هو الأفضل. عانيت كثيراً حتى أنقل هذه العبارة.

وبـدت نتائج الزيارة بالنسـبة للطرفين إيجابية جدًا. فقد رحب الزعيم السـوفيتي بمبادئ الوحدة العربية، وحق عبد الناصر في بناء مجتمع مصري وفق رؤيته. وكالعادة دعم خروشوف، بحماسـة، مطالب عبد الناصر بإغلاق القواعد الأجنبية في المنطقة، وأدان إسـرائيل بوصفها قاعـدة للإمبريالية، ودعم الموقف العربي فيما يتعلق بالاسـتفادة مـن مياه نهر الأردن. كما أظهرت مصر نفسـها كقوة لها وزن في الحركة الوطنية التحررية، وتناضل بقوة ضد الإمبريالية، أي ضـد الغرب المعادي للاتحاد السـوفيتي. وقد لبى التعاون مع مصـر متطلبات المرحلة في الاتحاد السـوفيتي، والتي تمثلت في حدوث تمازج بين فكرة الرسـالة السامية والبراجماتية في آن واحد.

لم يتوقف الكرم السـوفيتي تجاه مصـر على ميدالية بطل الاتحاد السـوفيتي التي منحت للقائدين المصريين، فقد وعد خروشـوف مصر بقرض طويل الأمد قدره أربعة مليارات روبل، يسـتخدم في أغراض إقامة مشـروعات اقتصادية، وتم الاتفاق على المشـروعات أثناء زيارة

رئيس الوزراء المصري، على صبري، إلى موسكو في سبتمبر من عام 1964م. وتعهد الاتحاد السوفيتي بتقديم الدعم في بناء مجمع الحديد والصلب بطاقة إنتاجية قدرها مليون طن سنويا، واختيرت مدينة حلوان موقعا له، كما تم الاتفاق على إنشاء محطة كهرباء قرب الأسكندرية، بطاقة إنتاجية مقدارها 200 كيلووات، ومصنع لتكرير النفط في السويس.

وقد خلع خروشــوف من الحكم في 14 أكتوبر 1964م، بعد مؤامرة هادئة من أعضاء المكتب السياسي للحزب، وكان السبب الأساسي في إبعاده المشاكل الداخلية، حيث عارض الجهاز الحزبي بشدة محاولات خروشوف إضعاف سيطرته على المجتمع، وكانت خلايا أنصار ســتالين النائمة غير راضية عن فضح خروشوف للزعيم ستالين، وتناول فترة حكمه بالسوء، كما لم يرض العامة الشعب عن مغامراته الكثيرة، ورفض المثقفون حماقته وتسلطه.

ولكن يجب أن أعطى لهذا الزعيم حقه. فقد اســتطاع أن يجمع بين شــخصية صاحب الرســالة الطيب، والبراجماتي السياسي. كان خروشوف يحلم، بطبيعة الحال، أن يرى الجميع، سواء بيضا أو سودا أو صفرا، يعيشون تحت الراية الشيوعية، وكانت سياساته في العالم العربي والعالم الثالث تتسم بالقدرة والحسم والحذر وعقل رجل الدولة، وأحيانا أخرى بعدم اللياقة.

ونشــير هنا إلى أن خروشــوف ظل حتى سقوطه رجلًا ذا حظ وافر. والسبب في ذلك لا يرجع فقط إلى تطابق نهجه السياسي مع توجه التحول التاريخي العام في العالم الثالث عامة، والشــرق الأوســط خاصة. فقد حظي بفرصة أن يصبح زعيمًا لدولة ضخمة تضاعف سنويا نموها، وقدرتها الصناعية، وترسانتها، وقوتها العسكرية، كان الاقتصاد الكمي ما زال مهيمنا. ولم يكن أحد يتوقع أو يري مؤشرات على انهيار الاتحاد السوفيتي بثرواته الضخمة تلك وكان القطاع الزراعي ما زال متماسكا رغم التحول لشراء القمح. لم تكن قد ظهرت بعد مشكلات عدم فعالية النظــام الإداري، بعد ذلك تم إجراء بعض المحاولات الخجولة لإصلاح الاقتصاد ولكنهــا لم تكتمــل. كان الغرب قد دخل مرحلة ما بعد المجتمع الصناعي، وتحول بعدها إلى مجتمع المعلومات والخدمات، واتسعت الهوة في جودة المنتج بينه وبين الاتحاد السوفيتي، ولكنها لم تكن ذات تأثير قوي بعد. شهدت فترة حكم خروشوف توطيد التعاون الاقتصادي والثقافي بين الاتحاد الســوفيتي والعالم العربي، واستند هذا التعاون بالأساس إلى القدرات الفنية والتقنية التي يمتلكها السوفيت. ففي الخمسينيات والستينيات تم توقيع اتفاقيات تعاون اقتصادي وفني بين الاتحاد السوفيتي وكل من مصر، والجزائر (مع الحكومة المؤقتة) في عام 1958م، والعراق (1959)، واليمن (1965)، وسوريا (1957)، والسودان (1963).

وتطـورت العلاقات بديناميكية أكثر مع مصر، فقد بلـغ حجم التجارة المتبادلة في عام 1965م عشـر أضعاف ما كانـت عليه في عام 1953م. وظل الاتحاد السـوفيتي خلال الفـترة مـن 1957 إلى 1959 يحتل المرتبة الأول في التبادل التجاري مع مصر، حيث كان أكـبر مشـتر للقطن المصري. وفي 29 ينايـر 1958م تم التوقيع علـى اتفاقية بين البلدين للتعاون الاقتصادي والفني، تضمنت قيام السـوفيت بتقديم الدعم في بناء 120 مشـروعًا صناعيًـا، وغيرها في مصر. وتم مضاعفة الطاقة الإنتاجية لمجمع حلوان حتى وصلت إنتاجيته، في السـبعينيات، إلى مليون ونصف مليون طن. كما سـاعد الاتحاد السوفيتي في بناء مصنع للآلات في حلوان، وآخر للمضادات الحيوية والأدوية في أبو زعبل، ومصنعين لتكرير النفط، ومصنع للراديو في القاهرة.

ويعتبر السـد العالي أهم مشروع يجسد مسـتوى التعاون بين البلدين. وقد تم في السابع والعشرين من ديسـمبر 1958م التوقيع على اتفاقية، يمنح الاتحاد السوفيتي، بموجبها، مصر دعمًـا اقتصاديًا وفنيًا لبناء المرحلة الأولى من السـد ثم تم التوقيع على تمويل المرحلة الثانية في أغسـطس 1960م. واعتبر السد العالي حينها الأكبر في أفريقيا، ويضم المشروع سدًا بطاقة إنتاجيـة للكهربـاء يبلغ حجمها 2. 1 مليون كيلو وات، وما يرتبط به من مشـروعات ري وخزان مياه بطاقة 130 مليار متر مكعب. وتم الانتهاء تماما من تشـييد المشـروع في يناير 1971م.

وفي العراق سـاعد الاتحاد السـوفيتي في بناء مصنع للمعدات الزراعيـة، وآخر لتجميع الجـرارات، وثالث لإنتاج المحركات، ثم قدم الدعم في تشـغيل الآبـار النفطية التي تم تأميمها في الرميلة. كما سـاعد السوفيت في مد السـكك الحديدية بين بغداد والبصرة، بطول يبلغ 570 كيلومترا. كما ساعد في بناء خط سكك حديدية في سوريا، يربط بين اللاذقية وحلب والقاميشلي، بطول يبلغ 737 كيلومترا. كما ساعد الاتحاد السوفيتي في تشييد ميناء الحديدة في اليمن.

كما تلقى الآلاف من الخبراء العرب والعسكريين تدريبهم على أيدى السوفيت، سواء في بلداهم أو في المعاهد والمؤسسات العلمية السوفيتية.

كمـا حظي التعاون الثقافي أيضا بأهمية كبيرة، وإن كانـت أقل من نظيرها الاقتصادي. حيـث جرى تبادل الزيارات بين الفنانين والرسـامين والرياضيـين. وفي عام 1959م تم في القاهرة تأسيس مدرسة حكومية للباليه، عمل فيها مدربو باليه سوفيت. ومع حلول منتصف الستينيات تأسست أول فرقة بالية مصرية.

ومنذ موت ستالين مباشرة شرعت القيادة السوفيتية في إرسال إشارات نوايا طيبة إلى تركيا وإيران وأفغانستان. كان الأمر أكثر صعوبة وتعقيدًا مع تركيا التي كانت قد انضمت إلى حلف الناتو في عام 1952م. قام الاتحاد السوفيتي في 30 مايو 1953 بإرسال مذكرة أعرب فيها عن رغبته في استعادة العلاقات الطيبة، التي ترجع إلى عشرينيات القرن، وفي إجراء مباحثات حول مختلف القضايا الخلافية، كما تضمنت المذكرة أيضا نفي الاتحاد السوفيتي لأي أطماع إقليمية له في تركيا. كان ذلك مثالا نادرا على الاعتراف العلني بخطأ السياسة الستالينية السابقة. وقد ظلت الروح العدائية مسيطرة على القادة الأتراك لسنوات بعدها، على الرغم من عرض القيادة السوفيتية تقديم المنح والقروض، وتوسيع التجارة والتعاون الاقتصادي، وفي عام 1963م بدأ التقارب التدريجي بين البلدين. حيث ظهرت في تركيا قوى معارضة لأمريكا، وأدى ذلك إلى تقليص الوجود العسكري الأمريكي في تركيا.

كانت إيران أيضا تتعامل بحذر شديد مع المبادرات السوفيتية، حيث انضمت إلى حلف بغداد متجاهلة غضب موسكو. إلا أن مصالح البلدين قادتهما إلى تحسين علاقتاهما، حيث قام الشاه بزيارة رسمية إلى موسكو في يونيو 1956م. كما حدث تقارب كبير بعد تصريح الشاه في العام نفسه بعدم السماح ببناء قواعد عسكرية أمريكية على أراضي بلاده.

وحافظت أفغانستان على عدم التقارب مع الاتحاد السوفيتي خلال الثلاثينيات والأربعينيات. لكن الوضع تغير في الخمسينيات حيث قرر رئيس الوزراء محمد داوود خان شراء السلاح السوفيتي حتى يدعم جيشه في مقاومة الضغط الباكستاني، وعقد أماله على الدعم السوفيتي له فيما يتعلق بقضية بشتونستان. وفي 27 يناير 1964م تم التوقيع على اتفاقية تعاون اقتصادي بين موسكو وكابول، بلغت قيمتها ثلاثة ملايين ونصف المليون دولار أمريكي. ثم توالى الدعم السوفيتي لأفغانستان في بناء وتشييد مشروعات الري، وتطوير الموانى على نهر سيردار، وبناء خزانات النفط والمعهد الفني في كابول، وتوسيع الطرق وتحديث المطارات. ومع حلول نهاية الخمسينيات احتلت أفغانستان المرتبة الثالثة بين الدول غير الاشتراكية من حيث حجم الدعم الاقتصادي السوفيتي الذي تحصل عليه. كانت السياسة الخارجية لهذا البلد مرضية تماما بالنسبة للقيادة السوفيتية.

ويمكن تقييم أداء خروشوف في الشرق الأوسط بالجيد والإيجابي. فقد بدت البلدان العربية إجمالًا إمَّا صديقة أو محايدة. كما استطاعت هذه البلدان دعم وتوطيد سيادتها واستقلالها، وحانت لحظة نهاية الحقبة الاستعمارية البريطانية في المنطقة. تم طرد كافة القواعد الأجنبية في كل من مصر والأردن والعراق والسودان، وكان من الممكن أن يطلق على كل من مصر وسوريا، والعراق بدرجة ما، حلفاء للاتحاد السوفيتي.

وورد في مذكرات محمد حسنين هيكل أن عبد الناصر لما علم بسقوط خروشوف قال: ''يجب أن نبدأ كل شيء من البداية.'' ويبدو أن هذا ما قاله غيره من القادة العرب.

ولكن لم يكن عليهم أو على من تولى بعد خروشوف أن يبدأوا كل شيء من البداية. حيث قاموا بكل بساطة بمواصلة العمل، والالتزام بالنهج نفسه، والحفاظ على مستوى العلاقات، ومن ناحية أخرى تعمقت بعض التناقضات والخلافات ووصلت أحيانا إلى ذروتها حتى أدت خلال عشر سنوات إلى تدهور العلاقة بين الاتحاد السوفيتي وبلدان الشرق الأوسط والأدنى. تشكلت في هذه المنطقة ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية جديدة، وكذا في كل من الاتحاد السوفيتي والغرب حيث تقلصت القدرات الاقتصادية السوفيتية، سواء بشكل نسبي أو مطلق، بسبب المواجهة المستمرة مع أمريكا وسباق التسلح الذي أضر بالطرفين وبشكل أساسي بالاتحاد السوفيتي.